مجلة الأزهر

جمادى الآخرة ١٣٨٣ هـ — نوفمبر ١٩٦٣ م

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض ٢٥٪

الجزء الرابع — السنة الخامسة والثلاثون — جمادى الآخرة سنة ١٣٨٣ هـ - نوفمبر ١٩٦٣ م

أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ...

بقلم : أحمد حسن الزيات

كلمة قالها من لا ينطق عن الهوى ولا يقول على الله ولا على نفسه غير الحق . فماذا يقول الكاتب الإنسان بعد هذا القول في بلاغة هي من صنع الله ؟ وما كان من صنع الله تضيق موازين الناس عن وزنه وتقصر مقاييسهم عن قياسه . فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره . هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ .

إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله هو (كتاب) البيان المعجز ، فإن كلام الرسول هو (سنة) هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده .

تجمعت فيه صلوات الله عليه خصائص البلاغة بالفطرة ، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، فقد ولد في بني هاشم ، ونشأ في قريش ، واسترضع في بني سعد ، وتزوج

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من بنى أسد ، وهاجر إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج ، وهذه القبائل التى تقلب فيها الرسول هى بالإجماع أخلص القبائل لسانا وأفصحها بيانا وأعذبها لهجة ، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة ، ثم تولى الله عز جلاله تأديبه وتهذيبه فكمله برجاحة العقل وسجاحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومحض السليقة ليكون لسانا لكلمته ومظهرا لنوره ثم أخذ يتصرف فى التجارة على عادة قومه ، فضرب فى الآفاق وتنقل فى الأسواق فرأى المناظر الجديدة ، وسمع المناطق المختلفة ، وحصل المعارف العامة ، والأسفار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق الذهن وترفد العقل وتزيد المعرفة .

ثم كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف فى غار حراء يتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافى اللطيف إلى الملأ الأعلى ، ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل الصمت ، فإذا تكلم اختصر من اللفظ واقتصر على الحاجة ، وألقى الكلام بينا فصلا يحفظه من جلس إليه ، ولو عده العاد لأحصاه كما قالت السيدة عائشة .

كل أولئك قد مكن للرسول الكريم من ناحية البلاغة ، فأسلست له الألفاظ ، وأسمحت له المعانى ، فلم يند فى لسانه لفظ ، ولم تضطرب فى أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم ينب عن خاطره فكرة ، حتى كان كلامه كما قال الجاحظ : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ... استعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ونزه عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل معنى ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين من لحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم » .

لذلك قال وقوله الحق : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر » . وقد قال له صاحبه أبو بكر ، لقد طفت فى بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أحسن منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ومن أولى بذلك كله ممن يخاطبه الله تعالى بقوله : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

* * *

إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز .

فالأصالة ، وهى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حتف أنفه . الآن حمى الوطيس . هدنة على دخن وقوله لحادى النساء : ويحك ، رفقا بالقوارير وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له ما بعده ، ولتمكن الأصالة فى طبعه كان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان وسرا من أسرار اللسان يزيد فى ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن وهذه القوى كلها اجتمعت على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه .

على أن الرسول عليه السلام كان يطيل إذا اقتضت الحال ذلك ، فقد روى أبو سعيد الخدرى أنه خطب بعد العصر فقال :

« ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس ألا يقول الحق إذا علمه » .

قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال :

« إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى »

والمأثور من كلام الرسول خطب وكتب وأحاديث ، وكلها تتسم بالإلهام والإبداع والعبقرية ، وتمتاز بالجزالة والجلالة والسبك ، وهو فى بعضها يستعمل الغريب ويلتزم السجع تبعا لما جرى على ألسنة الوافدين عليه من مختلف القبائل ، من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره .

* * *

وللرسول صلوات الله عليه قدرة معجزة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار وتلك ميزة الرسل من قبل ، لأن المرسلين فى مقام المعلمين ؟ وأنجع ما يكون التعليم إذا كان على طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . « إن المؤمن هين لين ، كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » . « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . « لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » . « إياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء فى المنبت السوء . « المرأة كالضلع إن رمت قوامها كسرتها » . « الناس كلهم سواسية كأسنان المشط » . « جنة الرجل داره » .

ومن روائع تشبيهاته عليه السلام قوله : إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فشق رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا . وإن تركوه هلك وهلكوا .

والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإســـلام والعروبة تقسمها الإخوة والبنون فى عهود الضعف والانحلال ، فصار لكل منهم وطن ودولة . ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب . فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره . فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجمع ، والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن المفرد . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لزعماء الدول العربية لعلهم يتذكرون فيتدبروا . وهذه هى بلاغة الإلهام والفيض تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر ، وعفو البديهة ، فتكون حكمة الحاضر ونبوة المستقبل .

أحمد حسن الزيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تفسير الأستاذ الإمام "الشيخ محمد عبده"

للأستاذ عباس محمود العقاد

لكل مقام مقال :

هي حكمة بليغة على هداها عرف الأقدمون البلاغة ووضعوا لها تعريفها الصحيح : وهو مراعاة مقتضى الحال .

ومقتضى الحال هو مقتضى المقام .

وإن الذين يشغلون عقولهم بامتحان صحة البلاغة ، أو صحة فهم الكلام البليغ ، ليبحثوا عن مسبار أفضل من هذا المسبار فيطول بهم البحث ولا ينتهون إلى خير من هذه الحقيقة :

وهي إننا نعرف أن القائل قد فهم معنى ما يدرسه أو يفسره إذا عرفنا أنه فهم مقام القول ، وفهم من ثم مراد القائل وأثر كلامه في السامع على حسب ذلك المقام .

فإذا كان قد فهم مقام القول حق فهمه فذلك هو الأساس الذي يقام عليه البناء ، أيا كان نصيب هذا البناء من المتانة والجمال ، ولا قيمة للبناء المتين الجميل إذا قام على أساس غير سليم .

تقدم هذه الكلمة تمهيدا للتعليق الذي دعانا إليه المقال النفيس الذي كتبه العالم الفاضل الدكتور عثمان أمين في عدد شهر جمادى الأولى من منبر الإسلام ، وأدار موضوعه على طريقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، وهي فيما نرى أحدث أساليب التفسير وأسدها من الوجهتين الدينية والبلاغية ، وخلاصتها في كلمات معدودات ، أن الأستاذ الإمام كان أقدر المفسرين المحدثين على فهم كل مقام من مقامات الوحي الشريف ، وذلك مقصد بعيد الأمد فيما يرجع إلى فهم الوحي الإلهي على التخصيص ، وإنما يعينه عليه أنه يدرك وحدة الوحي في جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما منه لموقعه من السامع وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه .

يقول الدكتور عثمان أمين عما توخاه الأستاذ الإمام من تفسير الكتاب : « إنما الفهم الذي يريده هو ما يكون عن ذوق سليم وما يتبعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدين ويقتضي ذلك النفاذ إلى روح القرآن والوقوف على معانيه ... ومن أجل ذلك نراه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ... » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثم يقول بعد توضيح لهذه الفكرة إن المفسر المصرى « ... ينتهى إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول فى آيات الأحكام ، فإن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه وإدراك حكمته وسره ... » .

ومغزى ذلك أن معرفة المقام أو المناسبة هى أساس الهداية إلى مقصد الخطاب وإلى أثر هذا الخطاب فى وجدان السامع ، على حسب المقام » .

وإن أحق الناس أن ينحو فى تفسير الكتاب هذا المنحى هم أولئك الذين يعملون فى التعليم وتقضى عليهم صناعتهم أن ينهجوا فيها على أحدث مناهجه فى افتتاح الدروس وتهيئة أذهان الطلاب لانتظارها وملاحقة الأستاذ المعلم عند مناسباتها ... وقد كان الكتاب الحكيم مثلا فى منهج التعليم كيفما كان موضوع الخطاب وموضع المستمع إليه ، وعلى هذا المنهج يتعلم المفسر كيف يتعلم من القرآن الكريم وكيف يعلمه ويمضى على سننه فى توجيه خطابه إلى مستمعيه ، ولم يغفل أحد عن هذا السنن ممن حاولوا فهم الكتاب بعد عهد الأستاذ الإمام إلا كان تفسيره جهلا بالمقال وجهلا بالمقام فى آن .

والمثل المحدود أجدى من الخوض فى شروح النظريات واختلاف الأقوال فى التعليقات عليها ، فمن أيام قليلة أتيح لنا أن نستمع إلى هذا المثل محدوداً محسوساً فى آيات من الكتاب تصدى لتفسيرها بعض المنقطعين للتعليم ، فوقعوا فى أخطاء كأخطاء أولئك الأقدمين الذين فاتهم حظ العلم بصناعة التعليم على نهجها الأول وعلى نهجها الأخير ، ثم أضافوا إليها أخطاء من قبيلها تدل على ضيق الأفق الذى ينحصر فيه كل من يغفل عن حقيقة المقام وحقيقة المقال فى تفسير الآيات القرآنية ، فإنه ينحصر فى نفسه وينقل شعوره هو إلى مستمع الخطاب لأنه خرج به عن مقامه بالنسبة إلى القائل - جل من قائل - وبالنسبة إلى المستمع للكلام الإلهى ، وقد يكون المستمع نبيا لا محل للشبه بينه وبين المتصدى للتفسير ، وهو لا يفقه من مقتضيات المقام غير شعوره هو يعسكه على كل إنسان وفى كل مناسبة ، وعلى غير مناسبة .

لقد أكثر بعض المفسرين من التعقيب على جواب موسى عليه السلام على سؤال الإله إياه عما بيمينه كما جاء فى سورة طه : «وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ... » .

ومدار تلك التعقيبات جميعاً أن الجواب قد عرض لأشياء لم يتطلبها السؤال ، وهو

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أمر إذا صدر من نبي جليل وجب أن يفسره المفسر بما ينفي عنه الغرابة ومخالفة المنتظر في جواب نبي مرسل لخالقه الذي أسلم إليه الرسالة .

والخطأ كله إنما هو خطأ الغافلين عن مقام السؤال ومقام الجواب ، أو عن مناسبة القول التي تفهم منها « ما يناسبه » ، وما يعتبر اختلافا بين غرض السؤال وغرض الجواب .

إن موسى عليه السلام قد فهم السؤال على الوجه الوحيد الذي يتقبل فهمه ولا يتقبل غيره .

إنه عليه السلام قد فهم قطعا أن الله جل وعلا لم يسأله عما في يمينه ليعلم شيئا مجهولا ، حاش لله أن يقع ذلك منه أو أن يقع في خلد عبد من عباده - فضلا عن نبي من أنبيائه - أنه مما يجوز في حق الإله .

فلو أن موسى عليه السلام قال في الجواب « إنها عصا » لكان هذا الجواب أبعد ما يكون عما ينبغي في هذا المقام .

ولكنه أجاب كما ينبغي أن يجيب من هو أهل لاستماع الرسالة الإلهية وإبلاغها إلى عباده وعلم علم اليقين أن السؤال مقصود لتعليمه هو شيئا يجهله ويزيد على ما يعلمه من حقيقة عصاه ، فوجب أن يقول كل ما يعلم من تلك الحقيقة في انتظار المزيد عليها مما يعلمه الله ويريد أن يعلمه إياه .

وهذا المنهج الإلهي في التعليم هو بعينه ذلك المنهج الذي عاد المعلمون - على أحدث مثال - فقرروه « للتطبيق » في صناعتهم العصرية ، وهم أحرى ممن لا يمارسون هذه الصناعة أن يلتفتوا إليها .

والطريف أن تشترك في هذه المساجلة سيدة معلمة فلا تعطي المقام حقه ولا تعلل الإطالة في جواب موسى بمقام التعليم الإلهي لنبيه في موضعه ، وإنما يخطر لها ما يدل على انحصار النفس في النفس ولا سيما النفس الأنثوية ، فتقول إنما أطال موسى عليه السلام لأنه أراد أن يتذوع بالإطالة إلى طول الوقوف بين يدي الله !

وجائز أن يكون من أساليب المرأة الخفرة أن تتمحل الأسباب بجواب غير مطلوب للوقوف حيث تريد أن تطيل الوقوف ، ولكنه في « مقام » الاستعداد للنهوض بأعباء النذر وأخطار الوعيد ومآزق الصدام بين دعوة الحق ورهبة السلطان شيء لا يقع في الحسبان .

وغير هذا وأمثاله كان فهم الإمام الرازي لوجه السؤال ووجه الجواب حيث قال في تفسيره لهذه الآية :

« ها هنا سؤالات : الأول قوله : وما تلك بيمينك سؤال » .

« والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال ، فما الفائدة فيه ؟ » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« والجواب : فيه فوائد ، إحداها أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ ... ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة يقول لهم : خذوا منه كذا وكذا ... فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآية الشريفة ، كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق ، وفى الحجر حتى انفجر منه الماء — عرضه أولا على موسى ، فكأنه قال : يا موسى ! هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك ؟ وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته ... » .

والفارق بين هذه النظرة من أمثال الإمام الرازى وبين نظرات الناظرين من قبيل من ذكرناهم هو فى الواقع جملة الفوارق الكثيرة بين فهم البلاغة وفهم تراكيب الحروف والألفاظ ، ويجمعها هذا الفارق الجوهرى الواحد وهو « مقام القول » .

فالمفسر الذى ينتبه إلى مقام القول يفقه مدلول السؤال كيفما كانت عبارته وتركيب ألفاظه وحروفه ويفقه الجواب الذى يناسبه ويوحيه إلى مستمع القول ، على حسب إدراكه لمقامه .

والمفسر الذى يخطئ هذا المقام يغفل عن القول وعن غرض القائل والمستمع وينحصر فى ذات نفسه ويقصر به الفهم والتخيل عما وراء شعوره ، أو يحسب السؤال والجواب بعدد الكلمات أيا كان المقام أو المناسبة .

وينقلب الفهم رأساً على عقب بين النظرتين فيصبح الجواب المستغرب هو الجواب الصحيح الذى لا غرابة فيه ويصبح الجواب المنتظر هو الجواب غير المنتظر فى مقامه وهو الجواب الذى يحتاج إلى التعليل والبحث عن باطنى غير الظاهر بين طواياه .

فلو أن موسى عليه السلام قال لما سأله ربه عما فى يمينه : هى عصا أو هى عصاى ، لكان هذا هو موضع العجب : كيف خفى على النبى المرسل أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما بيمينه ولا يسأله عن شئ يجهله ويطلب المعرفة به من جوابه .

فإذا فهم كما ينبغى له أن يفهم أن المقام مقام تعليم ، لا استطلاع ، لم يكن له جواب غير جوابه الذى يتطلب المزيد من العلم بما عند الله مما يهديه إليه ، وكان الجواب على قدر السؤال كلمة كلمة وحرفا حرفا ولم يكن بالمفسر حاجة إلى أن يتصور أن فى الجواب إطالة غير مطلوبة ، وإنما هى تحمل لإطالة

(البقية على الصفحة التالية)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام محرر العبيد

للأستاذ محمد محمد المدني

إن الحرية حق طبيعي لبني آدم الذين كرمهم الله تعالى ، وسوى بينهم ، فهو ربهم جميعاً ، وكلهم أمام ربوبيته سواء ، وهم جميعا أولاد آدم وحواء ، فلا فرق بينهم فى النشأة ، ولا امتياز لفرد منهم على فرد إلا بحسن سلوكهم فى الحياة ، وبما يقدمونه من أعمال صالحات .

ولكن الإنسان من قديم الزمان استعبد أخاه الإنسان واتخذه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه ، وكان هذا الرق نظاما مسلما به فى العالم ، بل كان بعض الفلاسفة يقرر أن الناس صنفان : صنف خلق ليكون سيدا ، وصنف خلق ليكون عبدا ، وأنهم لم يخلقوا من طينة واحدة : فالسادة والأمراء

بقية المنشور على صفحة ٣٩٢

الحديث فى غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية .

ولا بد من هذه النظرة إلى مقام القول فى تفسير كل بلاغة « على حسب مقتضاها » .

ولكن للقرآن الكريم حكما غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاما واحدا فى جملته يخالف به كل مقام : وهو مقام الرسالة الإلهية التى يرتبط بعضها ببعض وتنتهى ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقه جميع الأجزاء من السور والآيات متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات واختلاف مقام القول فى كل آية وفى كل حكم من أحكام يتواتر فى تفصيل آياته .

وذلك هو الذى عناه الدكتور عثمان أمين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام فى تفسيره : « إنه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة . وينتهى إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول فى آيات الأحكام فإن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه » .

وهذا فى لبابه هو منهج كل مفسر يستمع إليه فى هذا المقام الجليل ، ولا يجوز لمن لا يستطيعه أن يتصدى لتفسير القول البليغ كيفما كان ، وأجدر ألا يتصدى لتفسير أحسن القول وأحراه بالتبصر والوعى والمعرفة بمقام كل مقال .

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام محرر العبيد

للأستاذ محمد محمد المدني

إن الحرية حق طبيعي لبني آدم الذين كرمهم الله تعالى ، وسوى بينهم ، فهو ربهم جميعاً ، وكلهم أمام ربوبيته سواء ، وهم جميعا أولاد آدم وحواء ، فلا فرق بينهم فى النشأة ، ولا امتياز لفرد منهم على فرد إلا بحسن سلوكهم فى الحياة ، وبما يقدمونه من أعمال صالحات .

ولكن الإنسان من قديم الزمان استعبد أخاه الإنسان واتخذه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه ، وكان هذا الرق نظاما مسلما به فى العالم ، بل كان بعض الفلاسفة يقرر أن الناس صنفان : صنف خلق ليكون سيدا ، وصنف خلق ليكون عبدا ، وأنهم لم يخلقوا من طينة واحدة : فالسادة والأمراء

بقية المنشور على صفحة ٣٩٢

الحديث فى غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية .

ولا بد من هذه النظرة إلى مقام القول فى تفسير كل بلاغة « على حسب مقتضاها » .

ولكن للقرآن الكريم حكما غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاما واحدا فى جملته يخالف به كل مقام : وهو مقام الرسالة الإلهية التى يرتبط بعضها ببعض وتنتهى ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقه جميع الأجزاء من السور والآيات متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات واختلاف مقام القول فى كل آية وفى كل حكم من أحكام يتواتر فى تفصيل آياته .

وذلك هو الذى عناه الدكتور عثمان أمين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام فى تفسيره : « إنه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة . وينتهى إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول فى آيات الأحكام فإن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه » .

وهذا فى لبابه هو منهج كل مفسر يستمع إليه فى هذا المقام الجليل ، ولا يجوز لمن لا يستطيعه أن يتصدى لتفسير القول البليغ كيفما كان ، وأجدر ألا يتصدى لتفسير أحسن القول وأحراه بالتبصر والوعى والمعرفة بمقام كل مقال .

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خلقوا من طينة قوامها تبر الذهب ، والعبيد والأجراء خلقوا من طينة أخرى لا قيمة لها .

وكانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام تفرق فى الحقوق بين السادة والعبيد ، فلم يكن من حق الأرقاء أن يتولوا الوظائف العامة ، وإذا اعتدى سيد على عبد لم يعاقب على اعتدائه ، وإذا اعتدى عبد على سيد حقت عليه العقوبة أضعافا مضاعفة ، وربما وصلت إلى القتل ، وقد نص فى أحد قوانين القرون الوسطى بشأن الأرقاء على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده أو أحد الأحرار أو ارتكب أخف السرقات ، فإن جزاءه القتل .

« وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور بترونيا الرومانى ، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضى ، وفى عهد الامبراطور أنتونان الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة (١).

فلما جاء الإسلام لم يرض عن هذا الوضع المهين لكرامة بنى آدم ، وكان منطقياً مع مبادئه السامية فى تحقيق المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية للناس جميعاً دون تمييز ولا تفرقة ، ولذلك أعلن فى صراحة ووضوح « أنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ، « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » ، « ولا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ولكن ليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » .

كما أعلن فى صراحة ووضوح أنه يحب الحرية ويمجدها ويتشوف إلى تحقيقها ، وأنه يعتبر تحرير الرقاب من أعظم القربات التى يتقرب الناس بها إلى ربهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم بعد أن بين نعمة الله على الإنسان فى خلقه وتكوين أعضائه ، وتكريمه بالعقل ، وهدايته إلى النجدين — وهما معرفة الخير والشر يقول القرآن الكريم بعد الامتنان على الإنسان بهذا كله : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة » ، فهو يعد العقبة الكبرى التى يجب على الإنسان أن يعمل لاجتيازها ، هى احترام الإنسانية فى جميع أفرادها ، بتحريرهم من العبودية بملك الرقبة ، ومن العبودية للفقر أو المسكنة أو اليتم ، التى من شأنها أن تجعل الإنسان ذليلا مستضعفاً قابلا لما يفرضه عليه غيره .

---

(١) اقرأ كتاب (الإسلام دين عام خالد) للمرحوم العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وبهذا أعلن كرامة الإنسان وحقه فى الحرية، ثم وضع الخطة المحكمة لتصفية الرق على سبيل التدرج تصفية نهائية ولم ير أن يفاجىء المجتمعات بإلغائه دفعة واحدة حتى لا تهتز بذلك اهتزازاً عنيفاً يصيب المتحررين كما يصيب غيرهم .

وكانت سياسته فى ذلك : أن يضيق المسالك التى تؤدى إلى الرق . ويوسع المنافذ التى تؤدى إلى الحرية (١) .

فكان من المنافذ الكثيرة أنه جعل العتق كفارة لبعض ما يرتكب من الأخطاء والتقصير ...

« ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » .

ومن فطر عامداً فى رمضان فعليه أن يكفر عن ذلك بعتق رقبة أو صوم ستين يوما متتابعة .

ومن حنث فى يمينه فما يكفر به عن حنثه عتق رقبة .

وإذا ظاهر الزوج من زوجته ، أى قال لها كما كان يقول العرب قديما : أنت على كظهر أمى ، أى لا تحلين لى ، ثم أراد أن يعود إليها ، فعليه أن يحرر رقبة من العبودية تحقيقاً لقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » أى يراجعون أنفسهم فى شأنه ويريدون إصلاح خطئهم فيه — « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » أى من قبل أن يمس الرجل المظاهر زوجته أو تمسه هذه الزوجة ، وتلك رغبة بادية من المشرع فى العتق والتحرير ، ووضع للزوجين فى موضع يحملهما على ذلك حملا ، تلبية لرغبتهما الطبيعية فى المراجعة وإعادة الحياة الزوجية .

ومن مثل بعبده أو ضربه فكفارته أن يعتقه ، وقد روى فى ذلك عن ابن عمر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

كما روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له ، فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله — يستعطفه ويناشده بوجه الله أن يتركه ويعفيه من الضرب — ولكن الرجل لم يعفه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى الرسول كف عنه وأمسك عن ضربه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم منكرا عليه قسوته : سألك بوجه الله فلم تعفه ، فلما رأيتنى أمسكت يدك عنه ؟ ! فخاف الرجل خوفا شديدا وقال : فإنه حر لوجه الله يارسول الله ! ! ففرح الرسول بعد أن كان قد غضب وقال له : أما إنك لو لم تعتقه كفارة لضربه لسفعت وجهك النار ! .

---

(١) اقرأ فى ذلك ما كتبه العلامة الدكتور على عبد الواحد وافى بكتابه : (حقوق الإنسان فى الإسلام) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن منافذ التحرير أيضا ما قرره الإسلام من تخصيص جزء من مال الزكاة لعتق العبيد والإماء ، وذلك قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغـــارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فقوله تعالى « وفى الرقاب » معناه : وفى إطلاق الرقاب من قيود الرق ، وفى هذا التعبير تصوير للرق بأنه بمثابة الأغلال التى توضع فى الرقاب ، وتصوير لمن صار حرا بأنه استرد رقبته ، أى استعاد شخصيته وإنسانيته ، لأن الغل لا يوضع إلا فى عنق البهيمة ، ولا شـــك أن لذلك إيحاء عظيما بكراهية الشرع الرق ، وحبه الحرية .

ومن المنافذ التى هيأها الإسلام لتصفية الرق وتحرير العبيد والإماء ما يقرره من أن السيد إذا أتى من أمته المملوكة له ، بولد - ذكر أو أنثى - فإن وصفها يتغير ووضعها الاجتماعى ينتقل إلى منزلة غير منزلة العبودية الصرف ، فتصبح « أم ولد » وهـــذا هو الوصف الشرعى لها بعد ولادتها من السيد وهو وصف فيه تكريم ، وله مقتضيات :

أما كونه تكريما لها ؛ فلأنها أصبحت تشترك مع سيدها فى ولد يناديها بوصف « الأمومة » ويناديه بوصف « الأبوة » ويضفى عليه كل منهما قدرا مشتركا من الحنان والمحبة .

فأما مقتضيات هذا الوضع الجديد ، فمنها أنها تصبح بمجرد مجيئها بالولد من السيد مستحقة للحرية بعد موته ، فإذا مات السيد خرجت من تركته بالغة قيمتها ما بلغت ، وتقدم حريتها على كل الحقوق المترتبة على التركة من ديون أو وصايا أو أنصبة للوارثين.

واحتفاظا لها بهذا الحق فى التحرر بعد موت السيد حكم الإسلام بأنه لا يجوز للسيد فى حال حياته أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف يعوق تحررها .

وإذن فعلاقتها به أشبه بعلاقة الزوجة بزوجها ، لا بعلاقة الأمة بمالكها .

ومن مقتضيات هذا الوضع أيضا أن الولد الذى جاء ثمرة لهذا الاتصال من السيد بها يولد حراً ، فلا يتبع أمه كما هى قاعدة الرقيق ، ويكون له من الحقوق على أبيه فى حياته ، وبعد مماته ، مثل ما لسائر الأولاد الذين كانوا ثمرة زواج من نساء حرائر.

وقد تحرر بسبب هـذا النظام كثير من الإماء ، وكان لهن أولاد يتمتعون بالنسبة إلى آبائهم الأحرار ، ويعيشون مثلهم أحرارا ، وقد عرف التاريخ منهم من وصل إلى مرتبة الخلافة - كالمأمون العباسى بن هرون الرشيد ، الذى طبق ذكره آفاق الدنيا - وآفاق التـاريخ فى الحياة وبعد الممات !

محمد محمد المدنى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

من ملامح الإيمان

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

« لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين » .

١ — من منهج القرآن أن يعرج كثيراً على ذكر المؤمنين ، وعلى ذكر غيرهم من منافقين وكافرين .

ومن خصائص القرآن فى كثير من شئونه أن يكرر ما ذكره فى مقامات عدة ، وذلك التكرار نمط مقصود فى ذاته ، لما يتعلق به من أغراض أصيلة فى التشريع ، وفى التربية وفى المعرفة بوجه عام .

إذ لو كان القرآن لمجرد العرض ، أو لأغراض محدودة كالكتب الوضعية لجاز أن يكتفى بعرض ما يذكره مرة واحدة .

ولكنه كتاب سماوى .. يجتث من النفوس بذور الخبث ، ويركز مبادئ الحق ، ويقيم معالم الهداية والتربية على أركان قويمة .

فكان من محاسنه ومن دعمه لوسائل الإصلاح ملازمته للوعى الإنسانى بالتذكير دائما ، فهو يعاود الحديث عن الأمر الواحد فى عبارات بلاغية ، تتفاوت فى أسلوبها : طولا ، وقصراً ، وتأكيداً ، وغير تأكيد . كما يتنوع أسلوبه ثناء ، وإطراء على قوم . وهجاء وتشنيعا على آخرين حسب تباين مسالكهم .

وكما يقرن هذا كله بوعده ، أو وعيده حسب مقتضيات الحديث فى مجالاته العديدة .

٢ — وأنت ترى نموذجا من هذا فيما معنا من حديث القرآن عن المؤمنين ، وفيما سنذكره — بعد — من حديثه عن المنافقين .

وكم تحدثت آيات الله فى رحاب القرآن عن ملامح الإيمان التى يشيد الله بها ، ويجتذبنا إليها ، ويعشقنا فيها ، فيذكر لنا أن المؤمنين فى مطلع فجر الإسلام كانوا دائما عند دعوة الدين ، وعلى أهبة الجهاد لعدوهم الذى يقاوم دعوة الله .

وما كان الواحد منهم يبخل بنفسه ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أو ولده ، أو ماله فى سبيل الله ، بل كانوا يتشوفون إلى التضحية بما هو أعز من هذا كله لو أتيح لهم الأعز .

لعلمهم أن دنياهم موقوتة ، وأن المقام فيها والتمتع بها لا يساوى شيئا مما هو مدخر فى نعيم الآخرة ان تهيأ له .

فما كان واحد منهم يتوارى عن مؤازرة النبى صلى الله عليه وسلم ولا يستسيغ أن يحتال فى التخلف ، أو يتصنع المعذرة يوما ما للقعود مع المتخلفين ، بل على العكس : كان القادر بنفسه وماله كأنه قائم على قدميه ، وآخذ بعنان فرسه : وكلما سمع هيعة - صيحة للجهاد - طار إليها .

وكانت تعرض لبعضهم المعذرة الصادقة بعجزه عن الدابة التى تحمله ، أو عن المال الذى ينفقه ، أو لحاجة أهله إلى سعيه عليهم فى المعاش فلا يركن إلى الاعتذار بما هو حق ، بل يحاول أن يسبق مع السابقين ... وكثيراً ما كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصرف بعضهم عن الخروج معه ، ويعتذر إليهم بأنه لا يجد من الدواب ما يحملهم عليه فى سفره إلى الجهاد ، فينصرف هؤلاء الراغبون ، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لأنهم لا يجدون ما ينفقونه فى شراء الدواب أو فى نفقة السبيل .

٣ — هؤلاء الراغبون الذين لم يتمكنوا من وسائل الجهاد صدقوا فى عزيمتهم ، ثم قعدت بهم الحاجة ، فكانوا عند ربهم فى مقام الرضا والقبول ، والله - سبحانه - يعدهم بالمثوبة ويشهد لهم بالتقوى فى قوله تعالى : « والله عليم بالمتقين » ، وعلم الله بتقواهم كفيل بحسن جزائهم ، فإن نية المرء على عمل الخير جانب من البر ، وهى أنفع له من عمل يقوم به دون اعتزام عليه ، ولا إخلاص فيه .

فما بالك بمن يعتزم ، وينفذ ، ابتغاء رضوان الله ... وخاصة فى مقام الجهاد والرغبة فى التضحية وقد اتسع فضل الله فى تشجيعنا على اختيار العمل الطيب ، والقيام بتنفيذه فحينئذ يكون الثواب مكفولا بأضعافه من عشر أمثال ، إلى سبعمائة ، وانظر قول الله فى ذلك : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة » ، فهذه سبعمائة حبة من حبة واحدة ، أو هذه سبعمائة حسنة نجمت من حسنة واحدة .

وقد يزيد الله فى الجزاء عن ذلك الفضل إلى غير حصر : « والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

فهذا البيان - على إيجازه - يبدى لنا شيئاً من ملامح الإيمان ، وما يحرزه المؤمنون .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

(ب) من ملامح النفاق

« إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » .

١ ـ لم يكن الدخول فى الإسلام أكثر من نطق صادق بالشهادتين ، ثم التزام لما شرع الله .

ولكن نفراً من الناس لم تشرق هداية الله فى قلوبهم ، ولم تثبت نفوسهم على عقيدة واحدة ، فكان من هوانهم على أنفسهم أن يتذبذبوا بين كفر جاثم فى صدورهم وبين إسلام مصطنع تتحرك به ألسنتهم ، ولا تحس به قلوبهم .

وكانوا لتظاهرهم بالإسلام يدعون إلى الجهاد مع المسلمين ، ولكن تغلغل الكفر فى جوانحهم يصدهم عن الإجابة ، ويحبب إليهم القعود .

فكانوا يحتالون فى تغطية ما فى نفوسهم ويتصنعون المعاذير فى التخلف عن الخروج إلى الجهاد .

والمنافقون ـ دائما ـ أرباب حيل ماكرة ، يستترون بها ، حتى لا يعرف شأنهم الفاضح ، وهم دائما يخادعون ، ويحسبون أن باطلهم غير مكشوف .

ولكن الله ـ سبحانه ـ يأبى أن يدع الباطل مستساغا ، وأن يدع الحق مغموراً .

لذلك ـ كان يتعهد رسوله والمؤمنين ببيان شأن المنافقين فى كل محاولة . ويسجل عليهم الخزى عند كل مناسبة ، ويرميهم بالخداع الماكر ، ويؤكد لهم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله .

ويحذرنا كثيراً فى كتابه الكريم أن نقع فى حبالهم ، أو نقلد مكرهم .

٢ ـ ومن ملامح نفاقهم هذا ما حدث منهم فى غزوة تبوك ـ فى السنة التاسعة من الهجرة فهذه غزوة فتحت عليهم بابا واسعا من الفضائح ، ودفعتهم بإفشاء الكثير من نقصهم ، ومن هذا الكثير : أنهم كانوا يستأذنون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التخلف عن الخروج معه فى هذه الغزوة ، ويحاولون دائما أن يعتذروا عن تخلفهم بأسباب مصنوعة ، مع أنهم أقدر من سواهم على الجهاد لو أخلصوا .

والله تعالى ـ يبين لنا أن اعتذارهم لم يكن حقا فى شىء منه .

بل كان لأسباب معقولة ـ هى أنهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر : وأنهم يعيشون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى شك يساورهم يزعج خواطرهم فليسوا ثابتين على إيمان يطمئن قلوبهم ، ولا هم على كفر صريح يغطون فى ضـــلاله وفى غمرته كبقية الكافرين .

ومن تلك الأسباب - أنهم كانوا يحلفون كذبا للرسول قبل خروجه ليصرفهم عن الخروج راضيا أو يحلفون له بعد عودته ليظل مخدوعا فيهم .

فمرة يقولون « والله لو استطعنا لخرجنا معكم » ومرة يحلفون لهم ليرضوهم ، ويعصموا أنفسهم من سوء الظن بهم عند المسلمين .

٣ — وكل ذلك يكشفه الله لرســوله والمؤمنين ، ويبين لهم أن الله سلط المنافقين على أنفسهم ، فهم يعتذرون أو يحلفون وهم كاذبون فى كل ما فعلوا أو قالوا ، وأن الله ثبطهم عن الخروج ليكون هذا اقتضاحا لأمرهم كله ، وأنهم لو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا شأنهم وفرقوا جمعهم ، وفتنوهم عن دينهم ، وأنهم يغمتون بالمسلمين إذا حز بهم أمر كريه وأنهم يتألمون فى أنفسهم إذا أصاب المسلمين خير فى جهادهم ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، وأن شأنهم على هذا المنوال منذ جاءهم الإسلام ، وهم حانقون عليه.

وهكذا يستطرد القرآن فى قصصه عن المنافقين ، ويبين أن من ملامح نفاقهم فى غير الحرب أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم فى كسل ، وتثاقل ، وإذا أنفقوا درهما فى عمل طيب فهم كارهـــون لذلك ، فإن همهم كله ينصرف إلى التظاهر : لا إلى مقصد كريم وهذا ونحوه مما ذكره القرآن يعتبر توجيها لنا إلى تحاشى أعمالهم وأخلاقهم وليس شىء من هذا مما يرغب فيه إنسان كريم على نفسه فإنها خصال وضيعة وخسائس منكرة .

وقد عنى القرآن بالإفاضة فيها والتشنيع عليها أو التحذير منها .

٤ — ومع ذلك لا يزال منها ، بيننا تراث جاهلى ، ففينا تقاعد عن المكارم . . وفينا كذب فى الأيمان . وفينا تخلف عن الصلوات وعن كثير من تكاليف الإسلام وفينا إصرار على النقائص ، وهذه ونحوها شوائب مرذولة أو تقاليد بغيضة ونحن نعلمها ، ولا يجهلها الكثير من الناس

ولكننا لا نعرج عليها بإصـــلاح ، ولا نكفكها بتوبة ولا استغفار ، فاللهم اكشف عنا بلاءك ، واهدنا بهديك ، وطهرنا من لوثة النفاق جميعا .

عبد اللطيف السبكى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام وثقافة المرأة

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

لا يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق التربية والتعلم والثقافة ، بل يعطى المرأة الحق نفسه الذى يعطيه الرجل فى هذه الشئون. فيبيح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة وتهذيب ، بل إنه ليوجب عليها ذلك فى الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائفها فى الحياة . وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم ، وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود ، فقال عليه الصلاة والسلام فى بعض روايات هذا الحديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وضرب عليه السلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة أم المؤمنين . فقد روى البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى ، وهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم طلب إلى الشفاء أن تتابع تثقيفها ، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . فلم يقنع الرسول عليه السلام لحفصة بالضرورى من شئون المعرفة ، بل طلب لها كذلك الكمال من هذه الشئون ، متمثلا فى فن من الفنون الجميلة وهو تحسين الخط وزخرفته . وروى الواقدى أن عائشة وأم سلمة زوجتى الرسول عليه السلام تعلمتا القراءة والكتابة ، وأنهما كانتا تقرآن ، ولكنهما لم تجيدا الكتابة .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة على أن أبواب التربية والتعلم بمختلف صنوفهما كانت مفتحة على مصاريعها للبنات فى مختلف عصور الإسلام وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء ، وبرزن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب وشتى أنواع العلوم والآداب والفنون بل لقد كان منهن معلمات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام . فقد روى ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنها وعنهم كان لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه حديث رسول الله عليه السلام . وعد أبو حيان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من بين أساتذته ثلاثا من النساء ، هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ؛ وشامية التيمية ؛ وزينب بنت المؤرخ الرحالة الشهير عبداللطيف البغدادي صاحب كتاب : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » .

ولا يفرق الإسلام كذلك بين الحرة والأمة في حق التربية والتعلم ، بل إن الرسول عليه السلام لم يحث على تعليم الحرة ولم يرغب في تثقيفها بمقدار ما حث على تعليم الأمة ورغب في تثقيفها وتأديبها ، ليتيح لها بذلك فرصاً للحرية والمجد ، ويحقق هدفا من أهم أهداف الإسلام في شئون الاجتماع ، وهو إشاعة الحرية بين الناس وتصفية الرق في أقصر وقت مستطاع . فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة عن أبيه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » .

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن فرص الثقافة والتعلم كانت متاحة للجواري على الأخص في أوسع نطاق في مختلف العصور الإسلامية ، وأن هذه الفرص قد آتت ثمراتها الطيبة ، فأنشأت من الجواري آلافا من المبرزات في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام واللغة وشتى أنواع العلوم والفنون والآداب. وكتب التاريخ والأدب العربي ، وخاصة كتاب الأغاني، مملوءة بأخبار هؤلاء الجواري، وما بلغنه من شأو بعيد في هذه الميادين ، وما كان لهن من فضل في النهوض بالثقافة الإسلامية والعربية . بل إن هذه الآثار لتدل على أنه قد نبغ من الجواري معلمات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام فمن ذلك ما رواه المقري في كتابه « نفح الطيب » أنه كان لابن المطرف اللغوي جارية أخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض على الأخص ، ومن ثم سميت بالعروضية ، وأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتابي « الكامل » للمبرد و « الأمالي » لأبي علي القالي ، وتشرحهما ، وأنه قد درس عليها كثير من العلماء هذين الكتابين ، وعنها أخذوا العروض ، وروى ابن خلكان أن شهدة الكاتبة ، وكانت جارية في الأصل ، كان لا يشق لها غبار في العلم والأدب والخط الجيد الجميل ، وأنه قد سمع عليها وأخذ عنها خلق كثير .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ومما يدل على مبلغ ما وصلت إليه الجواري في ميادين العلوم والفنون والآداب في ظل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام أن هارون الرشيد قد عرضت عليه جارية قيل فى وصفها إنها نابغة فى مختلف ألوان الثقافة ليشتريها بألف دينار (وكان ذلك ثمنا باهظا حينئذ) . فرضى أن يدفع فيها هذا الثمن إذا تبين أنها كما وصفت لا يشق لها غبار فى ميادين العلوم والفنون والآداب . ثم جمع الأعلام من علماء الشريعة واللغة والطب والفلك والفلسفة والرياضة ومهرة اللاعبين بالشطرنج ، وقدم تلك الجارية إليهم ليختبروها ويعرفوا ما لديها . فكانت تجيب كل عالم عما يسألها عنه ، إجابة سديدة ، ثم تقول له :

إن على سائلنا أن نسأله
والعبء لا تعرفه أو تحمله

أى إنك لا تعرف ثقل العبء حتى تحمله أنت نفسك ؛ ثم تسأله سؤالا يعييه ولا يستطيع له جوابا .

ولقد أصبح للجوارى ، بفضل ما بلغنه من شأو فى هذه الميادين فى ظل الإسلام وتعاليمه مكانة كبيرة فى العالم الإسلامى ، حتى لقد كان لهن أثر ذو بال فى سياسة الدولة نفسها . فكان معظم خلفاء بنى العباس من أبناء الجوارى ، وكثيرا ما كانت الجوارى يتدخلن وكثيرا ما كن يستخدمن فى شئون سياسية خطيرة ، ومن طريف ما رواه أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » فى هذا الصدد أنه كان بين خالد بن عبد الله القسرى والكميت بن زيد خصومة ومنافرة فأراد خالد أن يكيد إلى خصمه ويوغر صدر هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فى ذلك العصر ، فاشترى ثلاثين جارية من كبريات العالمات الأديبات ودسهن مع نخاس إلى هشام ابن عبد الملك . فاشتراهن جميعا . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فيهن نهاية الأدب والفصاحة . ثم استقرأهن القرآن فقرأنه على أحسن ما يكون . ثم استنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت بن زيد (وهو شاعر من شعراء الشيعة ، ومن أنصار زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، الذى خرج على الأمويين ودعا لنفسه وقتل ، ويتبع مذهبه فرقة الشيعة الزيدية التى يتألف منها الآن نحو ثلث سكان اليمن) فى مدح بنى هاشم ، وهى القصائد المعروفة بالهاشميات ، مجموعة قصائده فى مدح بنى هاشم وذم بنى أمية والاستدلال على أحقية بنى هاشم بالخلافة ، وقد جمعها الكميت فى ديوان اشتهرت قصائده باسم الهاشميات ، ومن أشهرها قصيدته البائية التى يقول فيها فى مدح بنى هاشم ومبلغ تشيعه لهم :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، أذو الشيب يلعب ؟ !
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء ، والخير يطلب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى النفـــر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نابنى أتقـــرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

ويقول فيها عن أحقية بنى هاشم بالخلافة وسفه بنى أمية إذ يدعون حقهم فيها بالوراثة:

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
وما ورثتهـــم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضـلا على الناس واجبا
سفاها وحق الهـاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى
به دان شرقى لكم ومغرب
فإن هى لم تصلح لحى سـواهم
فإن ذوى القربى أحق وأقرب)

وكان خالد قد أوعز إليهن بذلك ليوغر صدر هشام ضد الكميت . فنجح فيما قصد إليه .

وروى ابن عبدربه فى كتابه العقد الفريد أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد أرادوا أن يحركوا حفيظته ضدهم . ويسلطوا عليهم بأس انتقامه ، فأوعزوا إلى جارية من جواريه الأديبات أن تغنيه قصيدة عمر ابن أبى ربيعة التى منها هذان البيتان :

ليت هنـدا أنجزتنا ما تعـــد
وشفت أنفسنا مما تجـــد
واستبدت مرة واحـــدة
إنما العاجز من لا يستبد

فغنتها له ، حتى إذا وصلت إلى هـذين البيتين غنتهما بلحن مؤثر قوى ، وأعادت غناءهما عـدة مرات ، فعرت الرشيد هزة عنيفة ، وانتفض من مكانه وقال : إى والله إنى لعاجز ، وكان ما كان من جراء ذلك من نكبته للبرامكة وقضائه على ما كان لهم من سلطان فى دولته .

* * *

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد هيأ للنساء على العموم فرصا للتربية الراقية ، من انتهزنها منهن بلغن أعلى المراتب التى قدر للرجال بلوغها . فلم يكن السبب فى الجهل الذى كان فاشيا بين النساء المسلمات فى الجيل الماضى راجعا إلى النظم التربوية فى الإسلام ، وإنما كان السبب فى ذلك انحراف المسلمين عما سنه الإسلام من نظم فى شئون التربية والتعليم ، وإذا كانت الأمم الإسلامية قد اتجهت فى العصر الحاضر إلى تربية البنت وتثقيفها فإنها فى ذلك لم تأت بدعا من العمل فى تاريخها ، وإنما أحيت سنة صالحة سنها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده .

* * *

ويحسبنا لبيان ما وصلت إليه النظم التربوية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلامية من سمو بالقياس إلى الشرائع الأخرى أن نوازن بينها وبين ما يعدونه أرقى نظام ديمقراطي قبل الإسلام ، وهو نظام حكومة أثينا في العصور السابقة للميلاد المسيحي . فقد كانت قوانين أثينا لا تتيح فرصة الثقافة والتعلم إلا للأحرار من ذكور اليونان . بينما توصدها إيصادا تاما أمام النساء والعبيد والموالي والأجانب ، وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير ، وصاغها في صورة نظرية علمية ، كبير فلاسفتهم أرسطو ، إذ يقرر في كتابه « السياسة » أن الآدميين ينقسمون فصيلتين : فصيلة مزودة بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان ، وفصيلة غير مزودة إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا بالجسم كالغريزة والعادة ، وهي فصيلة العبيد والموالي والأجانب ، ومن أجل ذلك يرى أنه من الواجب أن يقصر نطاق التعلم والثقافة العقلية على اليونانيين . أما من عداهم من العبيد والموالي والأجانب فليس في طبيعتهم أي استعداد لتلقي العلوم والمعارف ولذلك يجب أن يقتصر في تربيتهم على إعدادهم للأعمال الجسمية التي خلقوا من أجلها ، وهي أعمال الزراعة والصناعة وما إلى ذلك ، وكذلك شأن النساء على العموم في نظره ، فإن الطبيعة لم تزودهن بأي استعداد عقلي يعتد به ، ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة .

ولم يكن أرسطو في ذلك معبرا عن رأيه الشخصي ، وإنما كان مسجلا لما كان يجري عليه العمل في دولة أثينا التي يعدون نظامها أرقى نظام ديمقراطي في الأمم السابقة للإسلام ولذلك حينما قرر أفلاطون في مدينته الخيالية « الجمهورية » مبدأ مساواة المرأة بالرجل في حق التعلم والثقافة والاضطلاع بمختلف الوظائف كانت آراؤه موضع تهكم وسخرية من مفكري أثينا وفلاسفتها وشعرائها . حتى إن أريستوفان عميد شعراء الكوميديا في ذلك العصر وقف تمثيليتين اثنتين من تمثيلياته على السخرية بهذه الآراء ، وهما : « برلمان النساء » و « بلوتوس » ؟

دكتور علي عبد الواحد وافي

قال السكيت :

ألا لا أرى الأيام يقضي عجيبها ... لطول ولا الأحداث تفني خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ... ببعض من الأقوام إلا لبيبها
ولم أر قول المرء إلا كنبله ... له وبه محرومها ومصيبها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من صفحات الأندلس

ملك يكفّر عن خطيئته

للأستاذ محمد رجب البيومي

حين أصدر الأستاذ على أدهم كتابه عن المعتمد بن عباد فى سلسلة أعلام العرب كان اعتراض بعض الناقدين عليه أن هذا الملك البائس لا يسمو بأعماله إلى مستوى الأعلام! وقد يكون فى تاريخ المعتمد بعض الأخطاء الكبيرة التى تقعد به عن مستوى البطولة الباهرة، ولكن الإنصاف يدفعنا أن نذكر حسناته مع سيئاته، وإذا كانت الحسنة خاتمة هذه الأعمال المتناقضة فإنها جديرة أن تكون بمثابة الاستغفار من ذنب عظيم !!

لقد عهد ملوك الطوائف بالأندلس عهدا بائسا قلقا، تزلزله المطامع والأهواء، ويهدده الاضطراب الداخلى والتحرش الخارجى، وقد قدر للمعتمد أن يكون أقوى ملوك الطوائف نفوذا وأبعدهم تأثيرا ... وكانت قوته النسبية تدعوه إلى التحرش وتطمح به إلى الوثوب على إخوانه لتمتد رقعة ملكه حتى خيل إليه وهو شاعر ذو خيال بعيد أنه يستطيع أن يجمع المدن الإسلامية تحت لوائه ومن سوء حظه أنه وجد من رجال حاشيته من يزين له هذا المطمح، ويمد له أسباب الأمانى حيث يجب أن يضيق من أوهامه ويرجع إلى حقيقة وضعه من العدو المتربص به وبزملائه جميعا فى الأندلس !! على أنه لم يبتكر هذه الأمنيات ابتكارا وإنما ورثها عن أبيه المعتضد، فقد خطا الخطوات الأولى فى سبيل تحقيقها، وحين صدمه الواقع فى آماله لم ينكص على عقبيه ليتبين الهوة التى توشك أن تتفجر تحت قدميه ولكنه أخذ يحيك الأمانى من جديد ! وانطلق يتحدث عنها بمسامع أولاده الأمراء، حتى امتلأ المعتمد بما سمع ووقر فى ذهنه أن توحيد المدن الإسلامية سيتم على يديه، بل إنه شاهد أباه ينهض بسيفه فيحز رقبة شيخ ناصح تقدم إليه فى مجلسه راجيا أن يترك التحرش ببلاد الإسلام على حين يصول ملك قشتاله الإفرنجى بجبروته وطغيانه مهددا ملوك الطوائف دون استثناء، وقد بلغ من سيطرته المتمكنة أن فرض الجزية على هؤلاء جميعا فأصبحت أموال المسلمين تجبى إليه عن يد وهم صاغرون ! وقد خشى المعتضد على آماله من جرأة هذا القاضى فأورده الحتف شهيد الرأى والنصيحة كيلا يشجع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

غيره من القضاة على النقد والاعتراض ! فالمسألة فى رأيه لا تقبل النصيحة والروية ولا عليه أن يسفك دماء الأبرياء ليؤكد فى الأذهان رغبته الملحة فى السيطرة على بلاد الإسلام فى الأندلس افإذا همس بعض خاصته بتحرش الفونسو وتربصه قال فى دهاء ، سنفرغ إليه بعد حين ! أجل ، ورث المعتمد ملك أبيه وأوهامه معاً ، فما كاد ينتقل إليه السلطان حتى أخذ يثير أسباب العداء بينه وبين زملائه المسلمين ، وقد سعى بجيوشه ليحطم الأقربين من جيرانه مما اضطرهم أولا إلى محالفة العدو والتنازل له عن كثير من الحصون ، واضطره ثانية إلى أن يسلك مسلكهم فى التزلف إلى الفونسو ملك قشتاله ! وذلك ما كان يتوقعه الداهية المتربص إذ كان يقدر قيمة هذا التنازع المستمر بين المسلمين ، ويعمل على إذكائه وإبقاده غير عابئ بما عقد من المواثيق ! ! فحين سمت رسل المعتمد إليه أدار الرأى فى دهاء ثم وقع معه معاهدة آثمة كانت أفدح خطأ وقع فيه المعتمد ، وقد ترتب عليها من النتائج الخطيرة ما دفع المتعاهدان بعد حين إلى الجهر بالخصومة فالتهديد بالحرب ثم اشتعالها على نحو مريع ، وسنجمل الآن أهداف هذه المعاهدة لندرك عن يقين ما تمخضت عنه من أحداث :

كانت ثقة المعتمد بوزيره أبى بكر بن عمار وبالا عليه ، فقد كان هذا الرجل انتهازياً لا يفكر فى غير نفسه ، وقد أظهر من الولاء للمعتمد والتفانى فى استرضائه ما مكن له من نفسه ، حتى صار نديم بساطه وصاحب سره وكان فى اتفاق ميولهما نحو الأدب والشعر والغناء ما أكد هذه العلاقة ورفع صرحها على أساس من الثقة والإخلاص فى رأى الملك المخدوع ، وكان ابن عمار سوقه خاملا يمدح الرعاع ، ولكنه حين اتصل بالمعتمد اتخذ الأدب مطية للرياسة والجاه ، ورأى من تشجيع صاحبه ما بسط له حبل الأمل ، فأخذ يرقى ذروات المجد على يده حتى أصبح وزيره المختار ، ولم تكن مبادئه تتحول دون التدهور إلى مسالك شائنة من الغدر والعقوق يضمرها فى نفسه متى أتيح له أن يجد منتفساً شاسعاً لآماله ، إذ أنه لم يقنع بالوزارة ، وطمح إلى الملك فاستقل بإحدى ولايات سيده وجابهه بالعصيان دون حياء ثم أتت الريح بما لا يريد ، فوقع فى قبضة المعتمد وأورده الحتوف جزاء ما اقترفت يداه ، ولم يجده شيئاً ما حبّر من اعتذاريات القصائد وتوسلات الأدب ، بعد أن كشفت الحوادث عن معدنه الخسيس ، هذا الرجل الوصولى المنتهز أخذ يغرى المعتمد أثناء حظوته لديه ، بتحقيق آماله فى السيطرة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على جيرانه معتمداً على تأييد عدوه الألد الفونسو السادس ملك قشتاله ! وكان المعتمد على استعداد للثورة الناقمة على بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، إلا أنه يخشى سطوة الفونسو فهو حليفهم البارز ، وربما انتهز الفرصة ففاجأ المعتمد بجيوشه ، وأوقع به من الهزيمة ما لا يرضاه ! .

ولكن أبا بكر بن عمار أغراه بعقد معاهدة مع هذا العدو المتربص ، لا على أن يترك طليطلة للمعتمد فيتشفى من مناوئيه ، بل على أن يقوم الفونسو السادس بغزو طليطلة وضمها إلى أملاكه بعد أن يترك المعتمد حراً فى غزو ما سوى طليطلة من البلدان ، ولم يعبأ الفونسو بمعاهدته مع بنى ذى النون ، وأنى ؟ وهو الذى غدر بإخوته من أبيه وقتلهم واحداً واحداً دون إشفاق ، فاهتبل الفرصة ووقع على يد أبى بكر معاهدة تتيح له أن يغزو طليطلة دون اعتراض المعتمد ، ثم وجه جيوشه الجاشدة إلى الفريسة الصغيرة المتضعضعة ! والتفت صاحبها يحيى بن ذى النون ليجد السيل يجرفه من كل مكان ، فاستغاث بجيرانه المسلمين فلم يسعفه غير الملك الباسل الأبى عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ! إذ قام بواجبه باذلا أقصى ما يبذل من الجيش والحيلة والسلاح ، ولكن قوته لم تسعف بما يدفع طغيان الإفرنج ، فسقطت طليطلة لقمة سائغة فى فم الفونسو وكانت أول معقل يهوى فى الأندلس من حصون الإسلام ! ! عظمت النكبة الفادحة بسقوط طليطلة ، وأحس ملوك الطوائف جميعاً أن الخطر قاب قوسين منهم وأفاق المعتمد من سكرته ليلمس تجبر الفونسو واستعلاءه ، إذ أرسل إليه رسله يطلب بعض الحصون . ويسأل مضاعفة الجزية ، ويلوح بالقتال ، ثم بالغ فى وقاحته فأرسل يطلب أن تأتى زوجته إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها استجابة لرأى القسيس والأساقفة ، إذ أن الجامع قد أقيم على أنقاض كنيسة مقدسة تلتمس لديها البركات على أن تترك الزوجة قبل أيام الميلاد بمدينة الزهراء غربى قرطبة ، لتختلف منها إلى الجامع المذكور ، بين طيب النسيم ورقة الماء ، ثم أردف ذلك المطلب العجيب بإيفاد رسوله اليهودى ابن شاليب على رأس جماعة من وجوه القشتاليين ، فضربوا خيامهم بظاهر أشبيلية وأحدثوا من الضوضاء والجلبة ما أعلن استهتارهم المتكبر وتغطرسهم السفيه فأسرع المعتمد بإرسال الجزية إليهم كى ينصرفوا مسرعين ، ولكن ابن شاليب يرمى بها فى غطرسة ويصيح « والله لا أخذت هذا العيار ولن آخذ منه إلا مشجرا وبعد هذا العام سآخذ منه أجفان البلاد ردوه إليه ! » ووصل القول إلى المعتمد فثارت نخوته وأمر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بسجن القشتاليين جميعاً ، ثم جرد اليهودى وصلبه قتيلا ، وبذلك وقف وجها لوجه أمام الفونسو ، ولاحت النذر مهددة بشر مستطير ! .

أدرك المعتمد فداحة خطئه حين ترك طليطلة لعدوه الألد ، واستشعر ندماً يؤرقه ويضنيه ثم جاءته الأنباء أن ملك قشتاله أخذ يحرق القرى الإسلامية ، ويقتل من تصل إليهم يده من الناس ، وقد خرب إقليم شذونة وشن الغارات على مرسيه وتقدم إلى غرناطه ثم حاصر سرقسطه ! ! فلابد من قوة توقف تياره المبيد ! ثم اتجه به ذهنه إلى الاستعانة بأمير المسلمين بالمغرب يوسف بن تاشفين ! ! فهو فى سطوته وشدته من يستطيع أن يؤدب هذا الطاغية المريد ! ! ولم تكن الاستعانة بهذا الأمير القوى مما يسهل استساغته لدن ملك حريص كالمعتمد ، فيوسف بن تاشفين صاحب مطامع وأهواء وسيجد بالأندلس متنفسا جديداً لمطامعه بعد أن قضى على أمراء المغرب وجمع البلاد فى حوزته ! ! وكان والده المعتضد يخشى بأسه ويوصى بالحذر من سطوته ! ولكن فظاعة الفونسو من ناحية ، وخطيئة المعتمد فى مأساة طليطلة من ناحية ثانية قد هونتا عليه كل عاقبة ، وكأنه أراد أن يكفر عن سيئته البلقاء باستدعاء أمير مسلم ينقذ البلاد سواء أضافها إلى حوزته أم تركها عن طواعية واختيار ! !

وقد وجد ابن عباد معارضة شديدة من بعض ملوك الطوائف ومن أهل بيته فأولئك يقولون « إن الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد » وهؤلاء يقولون بلسان ابنه الرشيد « يا أبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » والمعتمد يقول لأولئك وهؤلاء « إن رعى الجمال عند ابن تاشفين خير من رعى الخنازير عند الأذفونش ، والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علىّ اللعنة فى منابر الإسلام كما قامت على غيرى » .

ثم يقول « إنى من أمرى على حالين حال شك وحال يقين ، ولا بد لى من إحداهما ، لأنى إذا استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش فمن الجائز أن يفى لى كل منهما بعهده ومن الجائز ألا يفى فهذه حالة شك ، ولكنى إن استندت إلى ابن تاشفين أرضيت الله وإذا استندت إلى الأذفونش أسخطت الله ، فهذه حالة يقين » .

هذا التفكير المؤرق الساهد ، يكشف عن ندم المعتمد ، ويصور هول المأساة فى ضميره وحديثه عن رعى الجمال والخنازير يدل دلالة تامة على تفكيره فى الإسلام لا فى نفسه وقد تعاظمه أن تردد منابر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام لعناته ، فأقدم على الاستعانة بابن تاشفين تكفيرا عن ذنب فادح اجترمه ، ولتأت الأيام بعد ذلك بما تريد !

كان يوسف بن تاشفين فى ذروة مجده ، وقد أخضع المغرب لسلطانه ، وتطلع إلى ميدان آخر يرى فيه بقوته وسلاحه !

وقد دلت أعماله فيما بعد على ما كان يأمله من امتلاك الأندلس وضمها إلى رقعته الفسيحة ، ولم يكن يثنيه عن النهوض إلى ذلك قبل استدعاء المعتمد وزملائه غير جهله بمسالك الأندلس ودروبها ، إذ أن قواده لم يألفوا غير حرب الصحراء ، وليس فيهم من شاهد أسبانيا ودرس حصونها ومواقعها ، فالمجازفة بالعبور إليها أمر غير مأمون العاقبة ، وربما اتحد ملوك الطوائف وملوك النصرانية على حربه ، فيثوب بصفقة المغبون ، فلما جاءته الدعوة من ملوك الإسلام إلى إنقاذ البلاد من مخالب النصرانية المتوثبة صادفت رغبة أكيدة فى نفسه ، ولكنه لجأ إلى الاختبار الفاحص حين طلب من المعتمد أن يتنازل عن الجزيرة الخضراء لتغذو معقل حاميته ، ومربط ذخيرته وأجناده ، ولم يكن بحاجة إلى هذا المطلب ، فملوك الطوائف يستصرخون به عائدين ، ويستقبلونه مرحبين ، وفى كل مكان سيجد بينهم المثوى العزيز ، والترحيب المستبشر ، وقد ثارت حاشية المعتمد على هذا المطلب الغريب ، ولكنه كان مدفوعا إلى استقباله بشعور قوى غالب جعله يقبل كل ما يريد !.

وقد انطلق يوسف بسبعة آلاف من جنوده فقط إلى الأندلس ! وفى ذلك من الحيطة - كما أرى - ما يكشف عن حقيقة مآرب ابن تاشفين ، إذ لو كان كما تصوره بعض الروايات الساذجة مدفوعا إلى الجهاد حسبة لوجه الله وحده لأمر بطوفان لجب من جيشه الجرار ليعبر به دون اشتراط ، فيكون اللقاء بين المسيحية والإسلام حاسما فى أول معركة تشتعل ! !

وقد جرى الكاتبون على إسناد الانتصار إليه وحده فى معركة الزلاقة التى تم فيها اندحار ملوك النصرانية ، أجمعين ! ! ولو تأملنا الحوادث فى تعاقبها المتدافع فإننا نجد للمعتمد فضلا لا يقل عن فضله فى هذا الانتصار لحين هم الفريقان بالصيال بعد أن جمع الفونسو روايات النصرانية تحت قيادته وجاءته الأمداد المسعفة من فرنسا وأوربا ، دارت الرسائل بين الفريقين ، فلجأ الفونسو إلى الخديعة وكتب إلى المعتمد يقول : « غدا الجمعة وهو عيدكم وبعده الأحد وهو عيدنا فليكن لقاؤنا الاثنين ، فعرف المعتمد بذلك يوسف ، فقال : نعم نوافقه على بدء القتال يوم الاثنين (وفى بعض الروايات يوم السبت)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لأن الملوك لا يغدرون ، وليس من المنتظر أن يلوم فيفاجئنا بالقتال يوم الجمعة ، ولكن المعتمد واجه يوسف بما يعرفه من لؤم الفونسو وخديعته فلم يستمع إليه ! فأثر بعد ذلك أن يحتاط بنفسه للأمر ، وأمر جميع جيوش الأندلس الإسلامية أن تتأهب يوم الجمعة ، وقد صح ما توقعه هذا الرجل البصير ، فقد هجم ألفونسو بقوته المحتشدة حين نادى منادى الجمعة للصلاة ، فلاقته جيوش المعتمد وثبت عند الصدمة الأولى ثبات الأبطال ، يقول الأستاذ على أدهم :

ومال الفونسو على المعتمد بمجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة فاستمر القتال فيهم وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسف ، وهو يلاحظ طريقه ، وعظمت الحرب واشتد البلاء وأبطأ عليه الصحراويون وساءت ظنون أصحابه وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن المعتمد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو فى ذلك يضرب شمالا ويمينا ، وتذكر فى هذه الحالة ابناً صغيراً كان مغرما به تركه بأشبيلية فكنيته أبو هاشم فقال :

أبو هاشم هشمتنى الشفار
فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج
فلم يثنى ذكره للفرار .. »

ثم أقبلت جيوش المرابطين وتم النصر ...

لا نريد أن يفهم القارئ أننا نقلل من دور ابن تاشفين فى معركة الزلاقة ، ولكننا نريد أن نذكر أن ثبات المعتمد ورأيه قد أسهما فى النصر إلى حد كبير ، بل نزيد على ذلك فنذكر أن يوسف لو قبل رأى المعتمد بعد انتهاء المعركة لتغير وجه التاريخ ، فقد انكسر الفونسو متقهقراً ببقايا فلوله المنهزمة ورأى المعتمد أن تتبعهم الجيوش الإسلامية لتقضى عليهم القضاء الأخير ، ولكن يوسف خالف ذلك وتعلل بقوله : « لو اتبعناهم اليوم لقى فى طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ويجتمعوا بنا ثم نرجع إليه فنحسم داءه ، فأجابه المعتمد إنه إن فر من أمامه لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ! ، ولكن يوسف أصر على رأيه .

ونحن نعلم أن ابن تاشفين رجل مجرب مارس الحرب أعواما طوالا ، وقد كان فى نحو الثمانين من عمره حين دارت معركة الزلاقة ، وفكوصه عن متابعة المنهزمين لم يكن مما يشير به عقل فطن أريب ، إلا أن يكون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قد رأى بينه وبين نفسه أن القضاء النهائى على جيش النصرانية لا يمكن له من البقاء كما يأمل فى الأندلس ، فلا بد من انتظار موقعة ثانية بعد أن تتأصل أركانه فى البلاد ! وفى قوله للمعتمد عند بداية الحرب: إن الملوك لا يغدرون ما يكشف عن نيته فى امتلاك البلاد ، إذ كان يود أن ينهزم المعتمد وملوك الطوائف حين يفاجئون بالجيوش وحدهم ! ثم يأتى جيشه المرابط حين يتطلبه الموقف فيفوز بشرف النصر بعد أن تتضعضع قوى النصرانية ، وإلا فهل يعتقد يوسف بينه وبين نفسه أن الملوك لا يغدرون ، وهو ملك عاهد ثم غدر ، فنكل بملوك الطوائف حين استسلموا له وتركهم بين قتيل وأسير ، مهما يكن من شىء فقد انتهت معركة الزلاقة بهزيمة النصرانية وانسحابها إلى معاقلها ، لتستأنف الصيال من جديد !

ورنت أهازيج النصر فى بلاد الإســـلام واستشعر الأندلسيون حباً غامراً للبطل المنقذ يوسف بن تاشفين ، وكأنى به وقد أخذ يتنزه فى رياض الأندلس فشاهد من جمال حدائقها وكثرة أنهارها وبهجة قصورها ، ودلائل عزها وحضارتها ما أكد لديه ضرورة انتزاعها من ولاتها المتناحرين ، فأخذ يوقع الضغينة بينهم ، ويشجع الفقهاء على شكايتهم ثم يواجه الشاكى بالشكو ليفسح أسباب الجفوة والنفور ، وهكذا أحس ملوك الطوائف خطراً عاصفاً يهب عليهم من رياح يوسف . ثم رأوا غدره السافر حين وفد بجيوشه الجرارة ليستأصل شأفتهم جميعا ، وكانت قسوته الطاغية مضرب المثل ، فقد هدم المنازل والحصون ثم قتل الأمراء والملوك ، ومن أراد استذلاله أبقاه - كالمعتمد - أسيراً فى أهله يتجرع كئوس المذلة والندم ، ويعانى مرارة الفاقة والبؤس حين يجد زوجته وبناته يضطررن إلى غزل الصوف وبيعه ليجدن ما يأكلن ، وتلك قسوة مفرطة نلتمس لها وسائل التبرير فلا نجد ، وقد كان فى مقدوره وقد انتزع هؤلاء من سلطانهم العزيز ألا يفتك بمن قتل وألا يذل من استبقى وحسبه أن يقيموا بإفريقية بعيدين عن أوطانهم فى رغد من العيش ووفر من المال وكفاهم ما تعانى أرواحهم من ذلة الأسر ومرارة الاغتراب وحسرة التشريد بعد الأبهة والسلطان .

لقد كان المعتمد - فيما أرى - يتوقع هذا المصير ويخشاه ، ولكنه اندفع إليه ليكفر عن سيئته المنكرة حين عاهد الفونسو على الغدر بملوك المسلمين ! ولعله كان فى أسره يستروح بعض العزاء إذ واجه أهون الشرين ، حين رعى الجمال فى الصحراء لدى يوسف ، وعصمه الله من مرعى الخنـــازير لدى الإذفونش .

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٥ — المزايا الطبقية

لا يوجد في العرف الإسلامي ما عرف ويعرف في غيره بالنظام الطبقي ، ذلك لأن هذا النظام يقوم على أساس ظالم آثم ، إذ هو اتفاق عدد من الأفراد أو الهيئات ممن يعيشون في مستوى اقتصادي واحد أو متقارب على استغلال غيرهم . والاستئثار بأكبر قدر ممكن من الخيرات والخدمات التي تحقق لهم امتيازات خاصة بهم ، والمسلمون كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » وأقربهم إلى الله كما يقول جل شأنه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فاتفاق بعضهم على استغلال بعض من التعاون على الإثم والعدوان الذي نهى الله عنه ، وتواطؤ الأقوياء أو الأغنياء على ظلم الضعفاء أو الفقراء منكر لا وجود له في نظام يقوم على العدل والإحسان ، صحيح أنهم — وأن الناس في كل مكان — يتفاوتون في الدرجات على حسب اختلافهم في المواهب والقوى والمدارك والأخلاق والغنى والفقر ، ولكن ذلك ليس معناه — كما قلت في بعض ما كتبت — تبرير التخرب والتعصب ، واستعلاء فريق على فريق . واستغلال فريق لفريق ، وتربص فريق بفريق ، وآية ذلك ما نجد في القرآن من النعي على الكافرين بذلك حيث يقول الله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

فقد أنكر الله عليهم إنكارهم رسالة محمد بحجة أنه ليس من عظماء مكة والطائف ، وذكر أنهم ليس لهم أن يتطاولوا إلى تقسيم رحمة الله ، لأنه جل شأنه يختص بها من يشاء وقد قسم بينهم معيشتهم في هذه الحياة ، لا ليبغي بعضهم على بعض ، ولكن ليذكروا نعمته عليهم ، ويشكروا إحسانه إليهم . فكان عاقبة ذلك أن اتخذ بعضهم بعضا سخريا وبغى بعضهم على بعض . وجمعوا من طريق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

البغى والتسخير ما جمعوا من مال كثير ، ولكن رحمة الله خير مما جمعوا ويجمعون .

ومن ثم يظهر لنا ولكل متأمل أن اللام فى قوله تعالى « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » للعاقبة لا للتعليل وأنها كاللام فى قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وفى قول من يقول « أحسنت إلى فلان ليسىء الظن بالإحسان » أما تفسيرها على معنى التعليل فلا يستقيم مع مقصد الإسلام الجليل ولامع قول الله سبحانه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » وقد يستقيم التعليل بضرب من التأويل إذا جرى على هذا المعنى نفسه ، وهو أن الله قسم بينهم معيشتهم فى الحياة ففهموا - مخطئين فى الفهم - أن ذلك ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، وأيا ما كان الأمر فى فهم هذه الآية الكريمة فالوصف مختص بالكافرين وبالمجتمع الذى كان يتكون منهم ، أما المجتمع الإسلامى فهو على اختلاف أفراده فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف . مجتمع متكافل يشد بعضه بعضا ، ولا يكمل إيمان الإنسان فيه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه . كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعنى هذا أن أبناءه قد يتفاوتون فى الدرجات ، ولكن هذا التفاوت لا يغويهم ولا يغريهم ، ولا ينتهى بهم إلى التميز والتحيز . والتحزب والتعصب وما إلى ذلك مما قام ويقوم عليه نظام الطبقات .

وليس معنى هذا إنكار وجود الطوائف وإهدار وجود الجماعات . أو النقابات المهنية فقد يكون ذلك استجابة لحاجة طبيعية ، وتلبية لظروف اجتماعية ، وخدمة لمصلحة عامة ، ومن ثم كان على المجتمع ممثلا فى الدولة أو الحكومة أن يقف من الطوائف المختلفة موقف المصلح النزيه والحكم العدل كما يفهم من قوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

وعلى كل طائفة أن ترعى حق غيرها ، فلا تتطاول عليها بسخرية أو جور كما يفهم من قوله تعالى بعد ذلك : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، فليس لقوم أو جماعة أو طائفة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن تنحرف إلى الكبر والجور على غيرها . فإن مجرد السخرية منها والطعن فيها خروج عن طاعة الله وسروق من الدين الذى ارتضاه وفسوق بعد الإيمان . وظلم يستوجب التوبة والشعور بالألم والندم ، أما الظلم الناشىء عن التواطؤ . وحب الاستعلاء فحال يستوجب القتال كما يفهم من قوله « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » .

وقد كان مجتمع المدينة فى أول عهد الإسلام بالمدينة يتكون من عدة طوائف عرف بعضها باسم الأنصار وبعضها باسم المهاجرين ، وكان من هذه الطوائف اليهود من بنى قريظة والنضير فآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المسلمين من الأنصار والمهاجرين وعقد محالفة تجمع بين جميع السكان نص فيها على أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأن جميع سكان المدينة متضامنون فى حماية الناس وصيانة أرواحهم وأموالهم ، وأنهم جميعا جبهة واحدة ضد من يعتدى عليهم وأنهم لا يصح لأحدهم أن يطعن الآخر بعقد صلح منفرد دون رغبته وعلمه . وأن المدينة دار أمان للجميع إلا من ظلم وأثم » .

ويظهر من هذه الوثيقة التاريخية أنها أول نظام دستورى يكفل لجميع المواطنين حق المساواة ، ويلغى بينهم الفوارق الطبقية . ويجمعهم فى جبهة واحدة قوية ، ويحقق بينهم التضامن على حماية الأنفس وصيانة الأرواح . وإشاعة الأمن والسلام ولكن اليهود — وقد كانوا قبل الإسلام يمثلون الطبقة المستغلة هالهم أن يحرم الإسلام الربا ويقطع عليهم طريق الكسب الحرام ، ويطفىء نار الفتن التى كانوا يثيرونها بين الأوس والخزرج ، ويجدون فيها الدفء والأمن والمتاع . فنقضوا العهد . وتحللوا من هذه المحالفة أو الوثيقة الدستورية ، وعادوا إلى طبيعتهم التى عرفوا بها فى كل أطوار حياتهم « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض » ، وكان مصيرهم تطهير المجتمع منهم ، ليصير أمره « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » وليصير أمر المسلمين فيه كما يقول الله فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ونخلص من هذه المقدمات بهذه المبادئ والنتائج :

١ — أن الإسلام - وهو دين التوحيد يقوى الوحدة الإنسانية بتقرير مبدأ المساواة بين أجناس البشر وشعوبهم كما يفهم من قوله الله تعالى : يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وكما يفهم من قول رسوله صلى الله عليه وسلم : ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

٢ — أن الإسلام يؤكد وحدة الأمة التي تدين به كما يفهم من قوله تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

٣ — أن الإسلام يؤاخي بين جميع المؤمنين به كما يفهم من قوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة » ، وقوله سبحانه « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » .

٤ — أن التفاوت في الرزق والدرجات بين الناس أمر فطري يعترف به الإسلام . كما يفهم من قوله تعالى « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » ، وقوله سبحانه « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، ولكنه لا يعترف بوجود الطبقات التي تتواطأ على استغلال غيرها ، والاستئثار بمميزات خاصة لا يتمتع بها سواها .

٥ — أن الإسلام يسوي بين الخاضعين لأحكامه في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم . والغني والفقير والقوي والضعيف ومن ثم ، كان من أول ما قاله أبو بكر رضي الله عنه بعد أن صار إليه أمر المسلمين « إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه » .

ومعنى هذا — وكثير غير هذا — أن النظام الطبقي الذي عرف في الجاهلية ، وفي كثير من الشعوب الأوربية ، فقسم المجتمع إلى سادة وعبيد ، وملوك وسوقة ونبلاء ورعاع ، وعمال وأصحاب أعمال ، وطبقات أرستقراطية وبرجوازية وكهنوتية لا يلتقي في كثير أو قليل مع مبادئ الإسلام ، ولا يتفق مع روح الأخوة الإسلامية العامة التي تجمع بين المحكوم والحاكم ، والمخدوم والخادم ، والغني والفقير والكبير والصغير ، وتجعلهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ؟

عبد الرحيم فودة

* * *

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الخطيب البغدادي: مؤرخ بغداد وعالمها

للأستاذ محمود الشرقاوي

« كان قد انتهى إليه علم الحديث وحفظه في وقته »
« ابن النجار »

قبل شهور احتفلت بغداد بذكرى مرور ألف وماتتي سنة على تأسيسها وشاركها في هذه الذكرى عدد غير قليل من البلاد العربية، وهنا لابد من وقفة قصيرة، فاحتفال بلد عربي عريق مثل بغداد عاصمة الخلافة العباسية بذكرى بنائه على التاريخ الميلادي، أعتقد أنه لابد أن يثير في نفس كل عربي شيئاً من التأمل، فهو مظهر من مظاهر الغزو الأوربي لنا نحن العرب في جميع الميادين، حتى فيما هو من صميم ثقافتنا العربية الأصيلة التي يجب أن نحرص عليها. ولئن رضينا بأن يكون اعتماد بلادنا العربية على التقويم الغربي فيما يتصل بمرتبات الموظفين مثلا ونحو ذلك من الشئون الاقتصادية لضرورة ذلك أو سهولته، فإن هذه الذكريات العربية المرتبطة بتاريخنا وأمجادنا يجب أن نحرص على توقيتها بالسنين العربية.

* * *

كلمة عن بغداد:

بَغداد أو بُغداد - وبعض المؤلفات العربية القديمة تسميها بَغدان - كلمة فارسية (١) الأصل معناها: « عطية الله » وكانت هناك قرية بابلية قديمة تعرف بهذا الاسم عندما بنى المنصور العباسي بغداد الجديدة التي سماها: « دار السلام » والتي أصبحت بعد قليل عاصمة الخلافة وحاضرة العالم الإسلامي كله.

وقد بنيت بحيث يخترقها نهر « دجلة » على خط العرض: ٣٩١٩° شمالا وخط الطول ٤٤٤٤° شرقي جرينتش. وبعد إنشاء بغداد الجديدة أو « دار السلام » اندمجت فيها القرى القديمة المجاورة، وأهمها « الكرخ » التي لا تزال بهذا الاسم حياً من أحياء بغداد على الضفة الغربية لدجلة.

وضع المنصور ثاني خلفاء العباسيين، الحجر الأول لبناء بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ثم بدأ العمل فيها بعدد من العمال يقال إنه بلغ مائة ألف، وظل العمل فيها قائما

(١) انظر أصل التسمية وتعريبها في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، الجزء ١ - ص: ٥٨ - ٥٩.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

متصلا أربع سنوات ، وأقيم فى وسطها المسجد الجامع وقصر الخليفة الذى سمى « بباب الذهب » أو « القبة الخضراء » ثم أنشأ المنصور بعد ذلك لنفسه « قصر الخلد » خارج أسوار بغداد وإلى الشرق منها ، على نهر دجلة أيضاً ، كما أنشأ أيضاً لولى عهده « المهدى » قصورا أخرى أكبرها وأعظمها قصر « الرصافة » وأخذ المنصور بعد ذلك فى تقسيم الأراضى التى تحيط ببغداد والرصافة وتوزيعها على قواد جيشه وأقاربه ومواليه ، وفى « تاريخ بغداد » بيان هذه الإقطاعات (١) .

مجلس المنصور وقبابه :

ومع أن المنصور كان يعرف « بالدوانيقى » - لبخله وحرصه على الدانق - فقد أنفق فى بناء بغداد وقصورها وقصور « الرصافة » مالا كثيراً . وبنى لنفسه فى « القبة الخضراء » أربعة مجالس فى كل مجلس منها « قبة عظيمة ذاهبة فى السماء ، سمكها خمسون ذراعا من خرفة ، وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لايشبه نظائره - وكانت هذه القبة مجلس المنصور إذا أحب النظر إلى الماء وإلى من يقبل من ناحية خراسان . وقبة « على باب الشام كانت مجلس المنصور إذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها » وقبة « على باب البصرة كانت مجلسه إذا أحب النظر إلى الكرخ ومن أقبل من الناحية » وقبة « على باب الكوفة كانت مجلسه إذا أحب النظر إلى البساتين والضياع » . واتسع عمران بغداد حتى قال الخطيب البغدادى إنه كان فيها « ستة آلاف درب وسكة بالجانب الغربى ، وأربعة آلاف درب وسكة بالجانب الشرقى » (١) .

على التاريخ الطويل :

هذه نشأة « بغداد » وتلك بدايتها ، فإذا مددنا النظر على مدى تاريخها الطويل ، من يوم ذاك إلى عصرنا الحاضر ، مرت بنا صور متباينة مختلفة مما مر بها : عز البرامكة ومجدهم وكرمهم وسلطانهم العريض ، ثم نهايتهم المؤسفة القاسية ، خيال الحياة الباذخة التى كان يحياها هارون الرشيد والمجد الشامخ الذى كانت تعيشه بغداد دولة الخلافة والإسلام ، هذا الخيال ، الذى انتزع من الحقيقة فأصبح حلما فى العالم كله ومثلا ، على مدى الدهر ، للعزة والثروة والنعيم ، والسلطان .

ثم تجئ على بغداد حرب الأخوين : الأمين والمأمون فتحرق - وخاصة قصر الأمين فيها - الذى هدم بالمجانيق وأحرق كله - وتنقل ، بعد هذه الأهوال ، عاصمة الخلافة من بغداد إلى : « سامراء » فى عهد

(١) ص : ٨٤ - ٨٥ من الجزء الأول .

(١) ص : ٩٨ من الجزء الأول من تاريخ بغداد .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المعتصم فترتد بغداد بذلك إلى المرتبة الثانية لخمسين سنة . ثم يهدم منها الجانب الشرقى فى حرب المعتز والمستعين ، بعد تخريب الجانب الغربى فى حرب الأمين والمأمون . وتخرب المدينة كلها ، أو ما بقى منها بعد ذلك ، مرة ومرة فى الخصومات والمنازعات التى كانت تقوم بين جند الأتراك وخلافات دولة : « بنى بويه »

ثم تجىء الطامة الكبرى بقدوم التتار وتخريبهم بغداد : بنيانها وحضارتها ومجدها وثقافتها ، حتى نجد « الفرات » يفيض ، بل يطمس ، بما ألقى فيه من الناس ومن التحف ونفيس المؤلفات . ثم تنتهى « بغداد » إلى حيث تكون أشبه بقرية صغيرة تحكمها وتحكم « ولايتها » الدولة العثمانية إلى سنوات من القرن العشرين

مؤرخ بغداد : ٣٩٢ — ٤٦٣ / ١٠٠٢ — ١٠٧٢

أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدى ، كنيته : أبو بكر ، وشهرته : الخطيب البغدادى ، ولد فى « درزيجان » [1] - قرية من قرى العراق - ثم انتقل إلى بغداد فنشأ وعاش فيها ، عدا فترة من حياته خرج منها إلى الشام ، ثم عاد إلى بغداد فمات فيها .

كانت ولادته فى سنة ٣٩٢ (١٠٠٢ م) فى شهر جمادى الآخرة « ٢٤ منه » ولقد بدأ يتعلم الحديث الشريف ورحل فى سبيل ذلك إلى مكة فسمع من ثقات المحدثين فيها ، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة والدينور وغيرها . يسمع ويحفظ حتى صار من أكبر رجال الحديث ، ثم اتجه إلى الفقه فدرس - أول ما درس - مذهب الإمام ابن حنبل .

يقول ابن خلكان عنه : « إنه كان فقيها فغلب عليه « الفقه والتاريخ » ، ونال الخطيب البغدادى بعد ذلك ثقة الخليفة المستنصر العباسى ، ورعاية وزيره ابن مسلمة ، وكانت له عند هذا الوزير منزلة وكرامة جعلته يختاره لتدريس الحديث بمسجد المنصور فى بغداد .

وبقى الخطيب ، مؤرخ بغداد ومحدثها وفقيهها ، ينعم بهذه الرعاية من المستنصر ووزيره حتى وقعت فتنة البساسيرى [1] التى قضى فيها على ابن المسلمة ، ولقى الخطيب بعد ذلك محنة قاسية حتى أوشك أن يقتل ، لولا أنه فر إلى دمشق ، وكاد أن يقتل فيها أيضاً

(١) هذه ، فيما نعتقد ، أوثق الروايات ، وابن خلكان يقول إنه ولد « ببغداد » وهناك من يقول إنه ولد فى « غزية » بين مكة والكوفة .

(١) أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى ، وخروجه على المستنصر وقتله وقتل وزيره ابن المسلمة من الوقائع المشهورة فى التاريخ انظر ، مثلا ، النجوم الزاهرة الجزء - ٥ -

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولكنه استجار بابن أبي الجن [1] الشريف فأجاره ، ورحل إلى حلب وصور وطرابلس حيث أقام فى هذه البلاد زمنا ، ثم عاد إلى بغداد فى آخر عمره فمات بعد رجوعه بعام واحد ، فى اليوم السابع من ذى الحجة سنة ٤٦٣ (١٠٧١ م) ودفن إلى جوار المتصوف الزاهد بشر الحافى ، بعد جنازة حافلة .

وكانت وفاته مع ابن عبد البر [2] فى سنة واحدة ، وكان البغدادى يسمى حافظ المشرق وابن عبد البر حافظ المغرب .

مكانته وأخلاقه ومؤلفاته :

تلقى الخطيب البغدادى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، منهم أبو القاسم البلى الدمشقى المعروف بالسمبساطى ، وأبو الحسن المحاملى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، وكان أبوه خطيباً فأخذ فى تعليمه فى سن مبكرة حتى بلغ فى الحديث منزلة جعلت محدثى بغداد وخطباءها يعرضون عليه ما يجمعون من الحديث الشريف ليظهر لهم صحيحها من غيره قبل أن يتحدثوا بها إلى الناس فى خطبهم ، وتولى الخطابة مثل أبيه فعرف « بالخطيب » ،

وكان العالم الحجة أبو إسحق الشيرازى ينتفع بعلمه كثيراً ويجل قدره حتى حرص على أن يسير فى جنازته وأن يحمل نعشه على كتفه ، ويقول بعض مؤرخيه إن العلامة الشيرازى كان يعرض عليه كتبه ليراجعها ، ويصفه ابن خلكان بأنه . « كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين » .

وكان مع علمه الواسع بالحديث ، فصيح اللهجة عارفا بالأدب كثير القراءة والتأليف ، يجمع بين الحديث والفقه والتاريخ ويقول الشعر .

ذكر له ياقوت [1] ستة وخمسين مؤلفاً ، بعضها فى مصطلح الحديث مثل : « الكفاية فى علم الرواية » ، و « الفوائد المنتخبة » فى الحديث ، و « شرف أصحاب الحديث » فى الرجال ، و « الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع » - فى عشرة مجلدات - وغيرها .

كما أورد له كتبا فى الأدب مثل « البخلاء » و « الأمالى » ، و « تلخيص المتشابه فى الرسم » وأخرى فى الفقه مثل : « الفقيه والمتفقه » .

---

(١) أحمد بن على بن محمد القاضى أبو الحسين . كان يلى قضاء دمشق للمستنصر .

(٢) أبو عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب .

(١) أورد الأستاذ يوسف العش - دمشق - فى كتابه : « الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد ومحدثها » أسماء ٧٩ مؤلفاً للبغدادى . وابن خلكان - فى وفيات الأعيان - يقول إنه : « صنف قريبا من مائة مصنف » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ـ فى اثنى عشر جزءا ـ وغيرها ، وبعض هذه الكتب لا يزال مخطوطا .

وكان ، إلى علمه وتمكنه ، يحرص على الدقة والتثبت . يقول فى ذلك أبو عبيد الله الحميدى (١) : « ما راجعت الخطيب فى شىء إلا وأحالنى على كتاب وقال : حتى أبصره » فهو لا يريد أن يعتمد على حفظه وحده ، بل لابد أن يراجع ما يحفظ ويطمئن إليه ويتثبت منه .

أما مكانته فى عصره فقد عرفنا طرفا منها فيما سبق من الحديث عن صلته بالمستنصر وابن المسلمة وعن شيوخه وتلاميذه ومن حمل نعشه ، وسار فى جنازته . وقد روى مؤرخوه قصة تدل على علو منزلته أيضا بين معاصريه من كبار الشيوخ : قالوا إن الشيخ الزاهد أبا بكر بن زهراء كان قد أعد لنفسه قبرا إلى جانب قبر بشر الحافى ، وكان يذهب إليه فيبيت فيه ليلة كل أسبوع ويقرأ القرآن فلما أدرك الخطيب قرب أجله أوصى بأن يدفن إلى جوار بشر .

فلما مات ذهب كبار الشيوخ إلى ابن زهراء يرجونه فى أن يترك للخطيب القبر الذى هيأه لنفسه إلى جوار بشر ، فأبى إباء شديداً ، فذهب الشيوخ إلى الشيخ الكبير أبى البركات إسماعيل بن أبى سعد يوسطونه فى ذلك ، فأحضر الشيخ ابن زهراء وقال له : « أنا لا أقول لك : أعطهم القبر ، ولكن أقول لك لو أن بشراً الحافى فى الأحياء وأنت إلى جانبه فجاء أبو بكر الخطيب يقعد دونك ، أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه ... ؟ قال : لا ، بل كنت أقوم وأجلسه مكانى ، قال فهكذا ينبغى أن يكون » . فطاب قلب الشيخ أبى بكر ابن زهراء وترك قبره ليدفن فيه الخطيب .

وكان الخطيب البغدادى متصوفا زاهداً ، لم يترك عقبا ، لما قرب أجله كان عنده مائتا دينار فرقها كلها على الفقراء والفقهاء وأهل الحديث ، وأمر بأن يتصدق عنه ، بعد موته بجميع ما عليه من الثياب . أما كتبه فقد وقفها على المسلمين .

تاريخ بغداد :

أما أعظم كتبه على الإطلاق وأبقاها على الزمن فهو « تاريخ بغداد » الذى يقول فى مقدمته : (هذا كتاب : تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها ، وذكر كبار نزالها ، وذكر وارديها وتسمية علمائها ... الخ) .

و « تاريخ بغداد » سجل حافل تضمن وصف « المدينة وتخطيطها ، وما كانت عليه من

(١) أندلسى من جزيرة ميورقة ولد فى أواخر القرن الرابع ورحل إلى كثير من البلاد لطلب الحديث ثم استوطن بغداد . وكان من الملتصقين بابن حزم الظاهرى وله كتاب فى تاريخ الأندلس .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحضارة والمدنية . يترجم فيه للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ، والأشراف من علية الناس ، وسائر طبقات حملة القلم : النحاة ، والصرفيين والبيانيين واللغويين ، والقراء والمفسرين والمحدثين ، والفقهاء والقضاة ، والزهاد والمتصوفة والوعاظ » .

ويسجل تاريخ بغداد أيضا تاريخ رجالها من الفلكيين وأهل الحساب والهندسة والتنجيم والطب والشعر والتاريخ والجراحة والرماية والفروسية وحذاق الصناعات ، يترجم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أهل بغداد والوافدين عليها .

وقد ختم كتابه بذكر الشهيرات من نسائها وإمائها ولطائف ملحهن .

ويتضمن تاريخ بغداد تراجم وسير : ٧٨٠٠ من الرجال ، تتبعها تراجم اثنتين وثلاثين من نساء بغداد : « المذكورات بالفضل ورواية العلم » كما قال عند التأريخ لمن . وأسلوب الكتاب سهل واضح سليم من أحسن أساليب عصره .

وقد عنى المستشرقون بالخطيب وكتابه هذا ، فسجل فضله «بروكلمان» و«جولدزيهر» ونشر سلمون : (Salmon) مقدمة تاريخ بغداد فى ٣٠٠ صفحة باللغة الفرنسية وهذه المقدمة تدل على إحاطة الخطيب البغدادى بجملة كبيرة من المعارف الجغرافية والتاريخية التى كانت متداولة فى عصره .

وقد أثار الخطيب موجة من الغضب بسبب ما كتبه عن أبى حنيفة ـ الجزء ١٣ ـ وسجل ابن تغرى بردى [1] مظاهر هذا الغضب وبالغ فيها كثيراً . وألف غير واحد من العلماء كتباً فى تبرئة أبى حنيفة مما كتبه الخطيب منهم الحافظ ابن الجوزى [2] ، وعالم الملوك ، الملك المعظم « توران شاه » الذى ألف فى ذلك كتابه « السهم المصيب فى الرد على ابن الخطيب » .

* * *

هذه تحية متواضعة لعالم من أكبر علماء العرب الأعلام : الخطيب البغدادى لمناسبة ذكرى مرور اثنى عشر قرنا على إنشاء بغداد ، المدينة التى نشأ فيها ومات ، والتى خلد ذكرها وذكر رجالها فى تاريخه العظيم الحافل .

محمود الشرقاوى

---

(١) الجزء ـ ٥ ـ من كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٥ .

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن « أبو الفضائل » كان عالما فى جميع علوم عصره ، حتى الطب ، ولد فى بغداد سنة ٥١٠ (١١١٦) م ومات سنة ٥٩٧ (١٢٠٠) م .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مع البلاغيين :

اللفظ والمعنى

للأستاذ على العمارى

— ٤ —

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى صاحب كتاب (الشعر والشعراء) وإن كان له فضل لا ينكر على النقد والبلاغة والأدب لكنه كان يصدر فى منهجه عن عقلية منطقية ، فقد رأى السابقين عليه يدورون فى نقدهم حول اللفظ والمعنى ، وأحيانا يفضل أحدهم اللفظ على المعنى كما فعل أستاذه الجاحظ فاستعان بتفكيره المنطق ، وأخذ يقلب المسألة على وجوهها ، فرأى انها تنحصر فى أقسام أربعة ، فإما لفظ مع معنى ، وإما لا لفظ ولا معنى ، وإما لفظ دون معنى ، وإما معنى دون لفظ وهذا هو مقتضى القسمة العقلية ، وهكذا ورد قوله فى أول مقدمة الشعر والشعراء :

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل :

فى كفه خيزران ريحه عبق
من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته
فلا يكلم إلا حين يبتسم

لم يقل أحد فى الهيبة أحسن منه ، وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعا
ان الذى تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن منه ، وكقول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

حدثنى الرياشى عن الأصمعى أنه قال : هذا أبرع بيت قالته العرب ، وكقول حميد ابن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما

لم يقل أحد فى الكبر أحسن منه وكقول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطىء الكواكب

لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أعرب ، ومثل هذا فى الشعر كثير ، ليس للإطالة فى هذا المعنى وجه ، وستراه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عند ذكرنا أخبار الشعراء ، وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت نقشته لم تجد هناك طائلا كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع ، فاذا نظرت إلى ما تحتها وجدته ، ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينظر من غدا الرائح ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح ، وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وكقوله :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركانا

وضرب منه جاد معناه ، وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق ، وكقول النابغة النعمان

خطاطيف حجن فى حبال متينة
تمد بها أيد إليك نوازع

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظه مبينة لمعناه ، لأنه أراد أنت فى قدرتك على تخطاطيف عقف وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف ، وعلى أنى لست أرى المعنى حسنا ، وكقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه
ليل يصيح بجانبيه نهار

وضرب منه تأخر لفظه ، وتأخر معناه ، كقول الأعشى :

وفوه كأقاحى غداه وأيم الطل
كما شيب براح بارد من عسل النحل

وكقوله :

إن محلا وإن مرتحلا
وإن فى السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالحمـ
ـد وولى الملامة الرجلا
والأرض حالة لما حمل اللـ
ـه وما أن ترد ما فعلا
يوما تراه كشبه أردية العصـ
ـصب ويوما أديمها نقلا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهذا الشعر منحول لا أعرف فيه شيئا يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطى ولا
يشرب كأسا بكف من بخلا

فقال إن كل شارب يشرب بكفه وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل ، وهو معنى لطيف ، وكقول الخليل ابن أحمد العروضى :

إن الخليط تصدع
فطر بدائك أوقع
لولا جوار حسان
حور المدامع أربع
أم البنين وأسما
ثم الرباب وبوزع
لقلت للقلب ارحل
إذا بدا لك أودع

وهذا الشعر بين التكلف ، ردىء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن اسماح وسهولة كشعر الأصمعى وابن المقفع والخليل خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعا ، وأكثرهم شعراً ، ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه ... وقد يقدح فى الحسن قبح اسمه ، ويزيد فى مهانة الرجل فظاظة اسمه ، وترد عداة الرجل بشاعة كنيته .

وإنما نقلت هذه الفقرات بتمامها ليتمكن القارئ من متابعة الحديث عن اتجاه ابن قتيبة فى موضوع اللفظ والمعنى ، وليكون حكما عندما نعرض للذين اعتمدوا على هذه الفقرات ، ورموا ابن قتيبة بفساد الرأى فى العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وبضيق النظر . وضعف الذوق ، وسذاجة النقد ، وبأنه رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله وأنه حاول أن يورد عن غيره بعض المقاييس فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليصفها وصفها الحقيقى .

وقد يكون بعض ما قيل صحيحا لو أن مقدمة الشعر والشعراء هى مجهود ابن قتيبة فى النقد ، ولكن الاقتصار عليها ظلم للرجل ، وكان ينبغى حين يعمد كاتب أو ناقد إلى الحديث عن مثل هذا العالم أن ينظر نظرة شاملة فى كتابه لتكون أحكامه صحيحة أو قريبة من الصحة .

وقد بدأت هذا الحديث أن ابن قتيبة كان يصدر فى منهجه عن عقلية منطقية ، وإنما قصدت منهجه فى تقعيد القواعد ، وإيراد الحجج ، ولم أتعرض لذوقه ، وأرجأت الحديث عنه إلى هذا الموضع من البحث .

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الرجل هو الثالث ، فى العلماء ، الذين حاولوا أن يؤصلوا للنقد أصولا ، وأن يضعوا له حدودا فى كتاب يقرأ ويتدارس ، والإثنان الآخران

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هما محمد بن سلام الجمحى ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، ولا نعدو الحقيقة كذلك إذا قلنا إن ابن قتيبة يعد بين علماء الفقه الإسلامى بل العلوم الدينية بعامة ، وقد كان خطيب أهل السنة فى حين كان الجاحظ خطيب المعتزلة ، وله مؤلفات كثيرة تشهد برسوخ قدمه فى علوم القرآن والحديث ، ولكنه مع ذلك كان مشاركا فى الأدب ، وكان تلميذا الجاحظ ، وصديقا وزميلا لأبى العباس محمد بن يزيد المشهور بالمبرد ، فهو ليس غريبا عن هذا الميدان .

فصل ابن قتيبة بين اللفظ والمعنى ، وهو فى ذلك تابع لأستاذه الجاحظ ، وسلف لعلماء كثيرين جاءوا بعده نظروا هذه النظرة ، ولأدباء فضلاء صدروا فى أحكامهم عنها ، (جاء فى ترجمة القاضى الأرجانى فى كتاب) معاهد التنصيص فى شواهد التلخيص) [1] ما يأتى : قال أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر : كان الغزى صاحب معنى لا لفظ ، وكان الأبيوردى صاحب لفظ لا معنى ، وكان القاضى أبو بكر صاحب لفظ ومعنى ، قال ابن الخشاب : والأمر كما قال ، وأشعارهم تصدق هذا الحكم إذا تؤملت .

فلا يتجه حينئذ ما يقوله أحد النقاد : والتحدث عندئذ عن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالتحدث عن شفرتى مقص ، والتساؤل عن جودة أحدهما كالتساؤل عن أى الشفرتين أقطع [1] .

وهذه كلمة نقلت حرفيا من النقد الغربى ، وليس كل ما جاء عن الغرب واجب القبول ، لأن هذا أمر مرجعه إلى الإحساس والذوق ولا شك أننا - مثلا - نجزم بأن معانى ابن الرومى أجود من ألفاظه ، وأن ألفاظ البحترى أسمح من معانيه ... وهكذا كما نحكم - مثلا - بأن شوقيا يؤثر الألفاظ الرقيقة فى كل شعره وأن المتنبى يؤثر الألفاظ الجزلة فى كل شعره أيضا ، وأن غيرهما من الشعراء يدور شعره من حيث اللفظ بين الرقة والجزالة .

ثم ما حدود اللفظ الجيد ؟ وما المراد بالمعنى ؟ وما سر جودته عند ابن قتيبة ؟ كثير ممن كتبوا فى النقد بعد ابن قتيبة ، وخاصة المحدثين من نقادنا حاولوا الإجابة عن هذه الأسئلة ، ولكنها - مع الأسف - كانت إجابات ناقصة لأنها لم تعد النظر فى مقدمة الشعر والشعراء .

---

(١) الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) ص ٣٠ ط نهضة مصر .

(١) جـ ٣ ص ٤٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وابن قتيبة لم يقل لنا ما هو اللفظ الجيد ولا ما هو المعنى الذى يريد ، وما سر جودته وإنما تؤخذ الأجوبة على كل ذلك من حديثه العابر عن أقسام الشعر ، ومن شواهده التى ساقها ، وينبغى أن نضم إليها ما تناثر فى كتابه من نقد للشعر وأحكام على بعضه مرة بالجودة وأخرى بالاستقباح .

جاءت أول إشارة إلى اللفظ فى حديث ابن قتيبة عند ما علق على بيت النابغة فقال : لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أعرب ، ومعنى هذه الكلمة الأخيرة شدة الوضوح ، ولو سرنا مع هذا الناقد لوجدناه يؤثر الوضوح بالعبارة أو الإشارة وحديثه عن المطبوع والمتكلف يشير إلى ذلك ، ومعروف أن المطبوع سهل عذب وأن المتكلف متعقد كز ، وأن للأول ماء ورقة وحلاوة ، وفى الثانى غلظا وجساوة . وقد ورد الماء والرونق فى حديث ابن قتيبة عن بيت لبيد ، وهما أمران يدركهما الذوق ثم وصف اللفظ بصفات عامة يحتاج مدلولها إلى بيان كقوله فى أبيات كثير (ولما قضينا الأبيات) إنها أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع وكوصفه الألفاظ بالحسن والحلاوة ومن جمال الألفاظ عنده جودة السبك ، وتلاؤم النسج .

ولعل أولى الأوصاف بالاعتبار : الوضوح والإبانة ، فإنه يبدو من حديثه أن الإبانة شرط أساسى فى جودة الشعر ، وأنها دليل الطبع ولذلك لما عاب بيت النابغة (خطاطيف حجن ...) عابه بأن ألفاظه غير مبينة عن معناه ، وحين تحدث عن أشعار العلماء عابها بأنها لا تجىء عن اسماح وسهولة . وأضاف إلى ذلك سوء اختيار الألفاظ ، فقال عن أبيات الخليل : ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه .. أى لكفاه عيبا ، بدليل قوله : وقد يقدح فى الحسن قبح اسمه ، ويزيد فى مهانة الرجل فظاظة اسمه .

أما المعنى فيبدو من الشواهد التى اختارها فى تقسيم الشعر أنه يريد به الفكرة أو الحكمة أو ما دل على خلق جميل ، وقد يريد به التصوير الرائع ، فاستجادته لمعنى (يغضى حياء ...) إنما هو استجادة لفكرة بارعة واستجادته لبيت أبى ذؤيب : « ونفض راغبة ... » ، حتى قال فيه نقلا عن الأصمعى أنه أبرع بيت قالته العرب استجادة لمعنى خلق ، أما المعنى الذى فى بيت حميد بن ثور : « أرى بصرى ... » فهو حكمة رائعة ، وإعجابه بالتصوير جاء فى استشهاده ببيت النابغة حيث عبر عن طول الليل بأنه بطىء الكواكب .

ويبدو أنه يفرد التشبيه فيجعله أمرا مستقلا يجود به الشعر ، يدل على ذلك قوله فى المقدمة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب ، منها الإصابة فى التشبيه . فالظاهر من هذا الصنيع أنه يجعل التشبيه خارجا عن اللفظ وعن المعنى ، ويردد ذلك فى أثناء الكتاب، ومن ذلك ما جاء فى ترجمته للعباس ابن الأحنف حيث يقول: ومن بديع تشبيهه قوله فى المرأة إذا مشت :

كأنها حين تمشى فى وصائفها
تخطو على البيض أو خضر القوارير

وقوله :

قلبى إلى ما حزنى داعى
يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا
كان عدوى بين أضلاعى

يعنى قلبه . ومن هنا يظهر أنه يقصد بالتشبيه الصريح ، وما سماه الذين جاءوا بعده من علماء البلاغة « الاستعارة » . وهو يجعل التشبيه فى بيت بشار المشهور :

كأن مثار النقع منا ومنهم
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

من جيد التشبيه ، وقد أطال المتأخرون من علماء البلاغة فى امتداح هذا التشبيه مع أن المشبه به غير واقع على ما صور بشار .

ويكاد يجمع الكاتبون من المعاصرين على أن ابن قتيبة لا يعجبه من المعانى إلا أحد أمرين الفكرة أو المعنى الأخلاقى ، والحق أن ذلك كما قلت - قصور سببه الاقتصار على النظر فى المقدمة ، وإلا فإننا بسياحتنا فى كتاب « الشعر والشعراء » نرى أن ابن قتيبة استحسن كل المعانى التى يستحسنها أهل الذوق من الأدباء ، فهو يستحسن معانى فى الغزل ، وفى الهجاء وفى المديح ، بل ويستحسن جيد التصوير البارع ، دون أن يتضمن أى معنى عجيب ، بجانب ما يستحسن من شعر الفكرة والشعر الأخلاقى ، فقد جاء فى ترجمته لأبى الشيص : ومن جيد شعره :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا
ما من يهون عليك ممن أكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم
إذا كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة
حبا لذكرك فليلمنى اللوم

(للحديث بقية)

على العمارى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين العالم الإسلامي وأوربا

حرية العقيدة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

ليس أدل على شمول مدلول الحرية الإسلامية من مبدأ حرية العقيدة الذى جاء به الإسلام فى القرن السابع للميلاد ، واستقر فى تاريخه السياسى عبر العصور

فقد بعث الرسول الكريم ليطلق الفرد من إسار الشرك بالله وليبدل ظلمات الناس وجهالاتهم أمنا ونورا . واقتضته طبيعة الرسالة أن يسلك سبيل الدبلوماسية الحميدة لنشر دعوته فى الجزيرة العربية ومنها إلى أرجاء العالم أجمع . فكان يبشر بعقيدته بالطرق الودية السلمية ويبثها فى النفوس بالحسنى والإقناع . فلم يأخذ بأسلوب العدوان للقضاء على القيم الباطلة والذين يتمسكون بها ، ولكنه استخدم الحكمة فى هداية الذين يضلون عن سبيل الله وينشرون الباطل . كما قال الله تعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » . « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ذلك أن الدين لله ، ونحن الفقراء إليه وهو الغنى الحميد . وإنما شرع سبحانه ، الإيمان لهداية الناس إلى ما فيه نفعهم وصلاحهم . ولقد بين لهم طريق الخير وطريق الشر :

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

« ولتجزى كل نفس بما كسبت » .

« كل امرئ بما كسب رهين » .

وفى هذا المعنى جاءت الآيات البينات :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد »

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

« فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

« وما أنت عليهم بجبار » .

ومدلول هذه الآيات أن الإسلام يستنكر الإكراه ويحرمه ولو كان سبيلا إلى اعتناق دينه ، فالإيمان تحرر من الخوف ، ولا يستقيم أن يكون القهر والترهيب طريقا إلى الأمن والطمأنينة :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

والدين الحق أعز عند الله من أن يدخل فيه الناس جبرا وإذعانا ، فهو عقيدة تستقر فى القلب ، وينبغى أن يطمئن إليها العقل الذى ميز به الله الإنسان دون سائر مخلوقاته .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

دعوة الإسلام إلى استقلال الفكر

ومثلما ينهى الإسلام عن القهر والعسف أسلوبا لنشر مبادئه كذلك لا يرتضى اعتناقها عن تقليد ، فهو دين العقل وعقيدة الحرية ، وقد نعى على المشركين احتجاجهم بأنهم يسايرون آباءهم فى معتقداتهم ووصمهم بالجهالة والعبودية .

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

أو يتبعون كهانهم :

« قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

ودعا إلى استقلال الفكر وإطلاقه من أسر التقليد بغير تدبر ، وحث الإنسان على التماس الحقيقة ، معتمداً على قدرته العقلية ، وما أودعه الله فيه من فطرة سليمة . فجعل أساس الإيمان النظر فى خلق السموات والأرض ، والتأمل فى حقائق الوجود . ولم يكتف بالدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله من طريق تحريك الضمير والوجدان ، بل طلب كذلك الاستدلال على وجود الله ووحدانيته بالتفكير السليم .

« إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير » .

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

وكما يدعو الإسلام الناس إلى التحرر من الأوهام والضلالات من طريق التأمل والتفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون ، يدعوهم كذلك إلى الاحتكام إلى العقل فى إدراك نبوة الرسول ومعجزة القرآن الناطقة بصدقه :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

« كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

والإسلام ينفرد بين الديانات السماوية بأنه اتخذ منهج تحرير الفكر بالنظر إلى الدين من خلال الإنسان ، فإن من عرف نفسه عرف ربه ، وكان القدماء يبدءون بتقرير وجود الله ووحدانيته بأدلة منطقية فلسفية تخلو من الحياة ولا تستجيب لها النفس ، ولا يسلم بها العقل ، فجاء القرآن مقرراً :

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

« فلينظر الإنسان مم خلق » .

ونظرة الإسلام إلى قضية الدين ، أن الإيمان حق ، والحق رأس القيم الإنسانية ، وإنما ترسخ القيم فى النفس بالتدبر والتأمل ، ومن ثم ينبغى أن تكفل لها الحرية فى الوصول إلى العقيدة بوحى من وعيها - وإرادتها الخالصة ، فالحرية الصحيحة فى الإسلام لا تفهم إلا على أساس من العقل الذى أعلى الله من شأنه وجعل له القيمة الكبرى ، ونص القرآن صريح فى الأمر بالتفكير وإعمال العقل فى فهم آيات الله فى كتابه وفى كونه :

« هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

ذلك أنه متى كانت الحرية هى عماد الإيمان ، تحولت العقيدة إلى عمل وأصبحت سيرة وسلوكا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

للفرد ، فاستقام بناء الحرية ونشأت أمة من الأحرار ، وهذا أحد الأهداف العليا للدعوة الإسلامية .

الجهاد تأمين لحرية العقيدة :

وقد كان تاريخ الإسلام السياسي تطبيقا لمبدأ الحرية الدينية في جميع صوره بلا استثناء فشرعت الغزوات لدفع الفتنة والذود عن العقيدة لا للإكراه على اعتناقها ، فالإسلام دين ، ولكنه لا يحارب مخالفيه لمجرد صدودهم عن الدخول فيه ، إنما يحارب العدوان لا اختلاف الأديان ، فحروبه حروب دفاعية سواء كان المسلمون في موقف المهاجمين أم كانوا هم المهاجمين ، إذ كان يفرض عليهم الهجوم أحيانا بوصفه خطة حربية لا مفر من انتهاجها لإحباط نية العدوان التي بيتها الخصوم ودل عليها انتهاكهم للمواثيق والإسلام يدعو إلى مقارعة الفكرة بالفكرة فإذا عمد باغ إلى السيف ، فقد فرضت الحرب على المسلمين ، وهم في حل من صراع عدوهم بمثل ما اعتدى عليهم ، حتى لا يحول بينهم وبين بث رسالتهم بالحسنى وتأمينهم في وطنهم وحريتهم وعقيدتهم . فحربهم حرب عادلة ، وهي جهاد مشروع في سبيل الله ، فلا جور فيها ولا عدوان على حرية أو عقيدة .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » .

فشريعة الإسلام لا تبيح السيف إلا دفعا لعدوان أو اتقاء له ، فلا سبيل للمسلمين على غيرهم إذا فاءوا إلى السلام وقبلوا عقد عهد به ولم ينقضوه ، بل إنه يكفل لهم حق اللجوء إلى أهله والاحتماء بهم ، ثم حرية المغادرة إذا شاءوا وإن كانوا يضمرون معاودة القتال ، ذلك أن الخير الذي يصيبهم إذا اختاروا الدين الحق إنما يعود عليهم ، ولا يعز الإسلام بقوم يدخلونه كرها ، وإنما

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يعز بالأحرار الذين يرتضونه عن وعي وإرادة وإيمان ، لأن الحرية هى القوة وهى المنعة التى تنصر الحق وتنشر لواءه فى العالمين ، لا تبالى فى ذلك بالنفس والنفيس ، والعبرة فى الإسلام بقوة النفوس فى إخلاصها للعقيدة :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

كفالة حرية العقيدة للمسيحيين :

والإسلام يخلى بين المرء وربه ويجعله تبعة العقيدة التى يختارها ، وليس فى شريعته إكراه على اعتناق العقائد والديانات الأخرى ، وهو لا يطلب من أصحاب هذه الديانات المقيمين فى داره إلا التزام آداب المجتمع الإسلامى واحترام أنظمته وقوانينه العامة ، بل إنه يقر لهم بأحكام شريعتهم فى الأحوال الشخصية ، أما الجزية التى يكلف بأدائها أولئك المواطنون فهى ضريبة رمزية لا تؤخذ إلا عن يد أى عن مقدرة ، ومن ثم ترفع عن الأطفال والشيوخ والنساء ، فهى أشبه « ببدل نقدى » للتجنيد لا يكلف به إلا القادرون على القتال والكسب معاً ، ولا أدل على تسامح الإسلام واتساع مدلول حرية العقيدة فيه من إعفائه هؤلاء الذميين الذين يشكلون جزءاً من مجتمعه - من الحرب والاستشهاد فى سبيل قضية لا يؤمنون بها نظير قدر زهيد من المال يحسب فى عداد شعائر الولاء التى تستوجبها كل الأنظمة احتراما لسيادة الدولة ، فهو غنم أكثر منه غرما إذا قيس بضريبة الدم التى يدفعها المسلمون لحماية أنفسهم وحماية الذميين على السواء ، أما إذا شاء هؤلاء أن يشاركوا المسلمين فى القتال فلا حرج عليهم وهم حينئذ معفون من الجزية ، وليس ثمة مساواة بين المسلمين وغير المسلمين أكمل ولا أوفى من هذه المساواة ، فهم لا يلزمون بغير الجزية فى أوقات الحروب ، ولا يكلفون بالزكاة فى أوقات السلم مثلما يكلف بها المسلمون ، بل إن شروط الإعفاء من الجزية أهون منها فى الزكاة .

وفى سبيل تأكيد هذه الضمانات التى سنها الإسلام لكفالة حرية العقيدة وامتدادها حتى شملت المساواة بين المسلمين والذميين فى الحقوق الاجتماعية على اختلاف أنواعها ، جاءت الشريعة الإسلامية بمبدأ صريح فى هذا الشأن ينص على أنه : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » .

وجاءت فى الكتاب العزيز آيات فى ذكر عيسى ومريم وإكرامهما حثا للمسلمين على تبجيلهما :

« قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » .

(للبحث بقية)

سائر : حسن فتح الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من معاني القرآن

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » قرآن كريم

الطاعة : الانقياد مع الرضا والتسليم .

أولو الأمر : أصحاب الأمر من الأمراء بحق ، والولاة العدول ، أو العلماء المجتهدون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بما يقضى به دينهم .

التنازع والمنازعة ، المجاذبة والمخاصمة والمجادلة ، وأصله من نزع الشىء إذا جذبه من مقره أو اقتلعه من مكانه .

تأويلا : مآلا وعاقبة ، من آل الأمر إلى كذا بمعنى رجع إليه .

المعنى

يخاطب الله المسلمين بالوصف الذى يترتب عليه إسلامهم له ، وانقيادهم لأمره ، وهو الإيمان به وبكتبه ورسله ، ويأمرهم بما يقضى به هذا الإيمان، وهو الطاعة والإذعان لله والرسول ، ولأصحاب الأمر فيهم ممن يحكمون بما أمر به الله والرسول وتكون طاعتهم طاعة لله والرسول ، فإن الولاية والطاعة لا تكون إلا لهؤلاء كما يفهم من هذه الآية ، ومن قوله تعالى فى آية أخرى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ويأمرهم - جل شأنه - إذا اختلفوا فى شىء وتنازعوا فيه وتخاصموا عليه بعضهم مع بعض أو مع ولاتهم وأمراتهم أن يرجعوه إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله إن كانوا يؤمنون بالله وبيوم الحساب والجزاء ، فإن ذلك هو مقتضى الإيمان وهو مع ذلك أحسن مآلا وأسلم عاقبة .

ومن هذه الآية يفهم :

١ — أن أولى الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا من المؤمنين بدليل قوله : « منكم » .

٢ — أن التنازع بين أولى الأمر والمؤمنين يجب أن يكون الفصل فيه لحكم الله ورسوله بالرجوع إلى الكتاب والسنة .

٣ — أن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، كما ذكر ابن القيم ، بدليل تكرير الفعل « أطيعوا » مع الرسول ، دون أولى الأمر ، فقد حذف الفعل معهم إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ومن أمر بخلاف ما جاء به فلا سمع له ولا طاعة .

٤ — أن طاعة الرسول - بوصفه رسولا - طاعة لله ، بدليل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، والنتيجة اللازمة لذلك كله أن الحكم كله لله ، وذلك ما يفهم من قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ؟

عبد الرحيم فودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٨ —

فى المقال السابق تحدثت عن مبدأ المساواة فى الإسلام وأن النبى صلى الله عليه وسلم طبق هذا المبدأ السامى على نفسه وعلى أهله ، وعلى الناس جميعاً ، وأن الصديق سار على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يفرط فى هذا المبدأ قيد شعرة ، واليوم أتحدث عنها فى عهد الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه ثانى الخلفاء الراشدين فأقول وبالله التوفيق :

لقد جاء الفاروق رضى الله تعالى عنه فطبق مبدأ المساواة فى الأحكام الشرعية بين الناس جميعاً لا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين غنى وفقير ، وبالغ فى التطبيق حتى اعتبره البعض مغالياً فى هذا ، وكان يرى قتل الخليفة الظالم ، خطب يوما فقال : لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقا وغرباً ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن حنف قتلوه فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن تعوج عزلوه ، قال : لا ، القتل أنكى لمن بعده .

وكان يسر حينما يجد من الرعية رقابة على الخلفاء والولاة خطب يوما فقال : يا أيها الناس : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فقال : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه !!!

وقد أعطى الفاروق القود - الاقتصاص - من نفسه وأهله ، وأقاد للرعية من الولاة بل تشدد فى هذا وبالغ ، ولما قيل له فى هذا قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى القود من نفسه ، وأبا بكر يعطى القود من نفسه ، وأنا أعطى القود من نفسى ، ومن تشددات عمر رضى الله تعالى عنه فى تطبيق هذا المبدأ الإسلامى ما صنعه مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ذلك أنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف حول الكعبة يوما وطىء إزاره أعرابى من بنى فزارة ، فضربه على وجهه فشكاه الأعرابى إلى أمير المؤمنين عمر فاستدعى جبلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يقتص منك ، فكبر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الإسلام فاستمهله إلى الغد ، ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بهرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع .

وقد أخذ أمير المؤمنين عمر الولاة بما أخذ به نفسه فما ظلم أحد من الولاة أحدا من الرعية إلا اقتص له منه ، ومن أخباره في هذا ما روى أنه جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال : عذت معاذا ، قال : سابقت ابن عمرو ابن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ، ويحضر معه ابنه . فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل الرجل يضرب بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين! ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو يعني ابن العاص ، فقال المصري : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو بن العاص قولته المشهورة : « متى كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني الرجل المصري .

وإنه لمثل في المساواة فريد لا نكاد نعثر عليه في غير تاريخ الإسلام ولا سيما عصوره الأولى . وخطب يوما فقال : « يا أيها الناس إني ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه » . فقال عمرو ابن العاص : أرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه قال : إي والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه .

وقد آذن الفاروق الناس جميعا أن لا كبير فوق الحق ، ولا سلطان إلا سلطان الشريعة وما كان يعتبر نفسه أمام القضاء إلا كواحد من الناس جاء في « كنز العمال » عن الشعبي قال : كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه ، فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال : ههنا يا أمير المؤمنين فقال له عمر : هذا أول جور جرته في حكمك ولكني أجلس مع خصمي ، فجلس بين يديه فادعى أبي فأنكر عمر فقال زيد لأبي : أعف أمير المؤمنين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره ، فخلف عمر لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء .

وليس هذا بعجيب من عمر الذى وضع هذا الأساس العادل فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى أحد ولاته وقضاته الذى قال فيه : آس ـ ساو ـ بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ...

وكان رضى الله عنه ـ يكرم القضاة الذين لا يجاملون ، ولا يفرقون بين الخصوم فى المعاملة ، ويرى أنهم الحقيقون بولاية القضاء ، ذلك أنه أخذ فرسا من رجل على سوم فحمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى فقال شريح لعمر : أخذته صحيحا سليما فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليما وكان هذا الحكم الذى أصدره شريح ضد عمر من الأسباب التى حفزت عمر على تعيينه قاضيا وهكذا نجد أن لا فرق فى الإسلام فى القضاء بين خليفة ووال وواحد من عرض الناس وقد جرى العمل فى الإسلام على محاكمة الخلفاء والولاة أمام القضاء العادى ، وبالطريق العادى الذى يحاكم به بقية أفراد الشعب ، وقد سمعت آنفا ما كان من الفاروق عمر وهذا على ابن أبى طالب فى خلافته يفقد درعاله ويجدها مع يهودى يدعى ملكيتها ، فيرفع على أمره إلى القاضى فيحكم لصالح اليهودى ضد على ، وهذا هو المغيرة بن شعبة والى الكوفة يتهم بالزنا فيحاكم على الجريمة المنسوبة إليه بالطريق العادى وقد استمر العمل بهذه المساواة بعد عصر الخلفاء الراشدين فقد قص علينا التاريخ الصحيح أن المأمون وهو خليفة المسلمين اختصم مع رجل بين يدى يحيى بن أكثم قاضى بغداد ، فدخل المأمون إلى مجلس يحيى وخلفه خادم يحمل طنفسة لجلوس الخليفة فرفض يحيى أن يميز الخليفة على أحد من أفراد رعيته وقال : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه فاستحيا المأمون ، ودعا الرجل بطنفسة أخرى وهكذا سار العمل فى الدولة الإسلامية فى العصور التى كانت السيادة فيها الشريعة الإسلامية ، وأحكامها ، وقواعدها .

وقد اتفق الفقهاء على المساواة فى المسئولية والعقوبة بين جمهور الناس وبين الولاة والحكام والسلاطين والملوك الذين يخضعون للخليفة الذى عقدت له البيعة أو يستمدون سلطتهم منه ، وأن الجميع أمام سلطان الشريعة سواء .

ولكنهم اختلفوا فى الإمام الذى ليس

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فوقه إمام وهو ما يعرف فى الإسلام بالإمام الأعظم أو الخليفة على رأيين :

الأول : رأى الجمهور من الفقهاء وهم : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وهؤلاء لا يفرقون بين جريمة وجريمة ، ويرون أن الإمام مسئول عن كل جريمة ارتكبها سواء منها ما يتعلق بحق الله أو يتعلق بحق العباد ، وإن فيما سقناه من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته الناس إلى الاقتصاص منه ، ومن سير الخلفاء من بعده ما يؤيد هذا الرأى ويقويه .

الرأى الثانى : رأى الإمام أبى حنيفة ، وخلاصته أن الإمام الأعظم لا يؤاخذ بشىء مما يجب به الحد كالزنا والشرب والقذف إلا القصاص والأموال ، فإذا قتل إنسانا أو أتلف ماله يؤاخذ به ، وحجتهم أن الحد حق الله تعالى ، وهو المكلف بإقامته ، ومن المتعذر أن يقيم الخليفة الحد على نفسه بخلاف حقوق العباد : كالقصاص وضمان المتلفات ؛ لأن حق استيفائها لمن لهم الحق ، فيكون الإمام فيه كغيره .

وليس معنى هذا عند الإمام أبى حنيفة أن عدم إمكان عقوبة الإمام الأعظم على جريمة من الجرائم أنها تحل له ، لا بل هى حرام عليه ويترتب على هذا أن الإمام لو زنا وهو محصن فقتله أى فرد من الأفراد فإن القاتل لا يعاقب لأنه قتل شخصا مباح الدم إذ الزنا من محصن عقوبته الموت بالرجم .

أما الجرائم التى تمس حقوق الأفراد كالقتل والجراح والأموال فيرى أبو حنيفة أن الإمام الأعظم يؤاخذ بها ويعاقب عليها ؛ لأن حق استيفائها ليس له أصلا وإنما هو للمجنى عليهم وأوليائهم ، وإذا قام الإمام باستيفاء العقوبة فى هذه الجرائم فإنما يقوم به نيابة عن الأفراد فإذا ارتكب الإمام جريمة من هذا النوع كان للأفراد أصحاب الحق الأصلى استيفاء العقوبة من الإمام مستعينين فى ذلك بالقضاء وبالجماعة الإسلامية .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية لا تميز رئيس الدولة الإسلامية الأعلى بالحقوق فهى من باب أولى لا تميز رؤساء الدول الأجنبية فإذا ارتكبوا أية جريمة حال وجودهم فى دار الإسلام عوقبوا عليها ، وكذلك لا تعفى الشريعة رجال السلك السياسى إذا ما أتوا بجريمة فى دار الإسلام ولا أعضاء الهيئة التشريعية على الجرائم القولية التى يرتكبونها فى دار الشورى - البرلمان - لأن الشريعة الإسلامية تأبى أن تميز فردا عن فرد أو جماعة عن جماعة ، ولأنها تأبى أن تسمح لفرد أو هيئة بارتكاب الجرائم مهما كانت وظيفة الفرد أو الجماعة ؟

محمد محمد أبو شهبة

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ ص ٣٢٠ وما بعدها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين

للأستاذ أحمد الشرباصي

الدين يؤدى إلى التدين ، والتدين يقين واعتقاد ، والاعتقاد يقوم على إيمان وطيد وتصديق جازم ، ولذلك تعتبر العقيدة الدينية ذات سلطة مكينة مهيمنة على صاحبها ، ومن هنا يظهر أثر الدين البليغ فى توجيه الإنسان ودفعه إلى أداء واجبه المبادى والاجتماعى ، فإذا ضم الدين فى مبادئه وتعاليمه مجموعة من القيم الاجتماعية والمبادئ الحيوية - كالتى تتمثل فى دعوة الإسلام الكبرى - أدى ذلك إلى حرص المؤمن على هذه القيم ، وبذله غاية جهده - ما دام إيمانه مستقيما - فى تنفيذ هذه التعاليم ، والتقيد بتلك المبادئ والمثل .

والتدين فى حد ذاته يؤدى إلى خدمات اجتماعية جليلة ، لأن إيمان الإنسان بقوة خالقة مبدعة مراقبة ، محيطة بكل شىء ، قادرة على كل أمر ، وبيدها مقاليد السموات والأرض ، وليس مثلها شىء ، وهى مطلعة على السر والنجوى ، وعلى ما ظهر وما بطن ... هذا الإيمان يوجد فى نفس الإنسان صفة « المراقبة » ، أو الضمير اليقظ الحى بلغة العصر ، وهذه المراقبة تجعل صاحبها يقيم من نفسه على نفسه حارسا وديدبانا يغاديه ويراوحه ، وهى التى تعصم الإنسان من الخطأ ، سواء أكان منفرداً بنفسه ، أو مجتمعاً مع غيره ، لأن عين الله تراه دائماً ، ولا تغفل عنه ولا عن غيره لحظة .

ومتى سيطرت هذه المراقبة على الإنسان جعلته صالحاً طاهراً فى كل حال ، وهذا يؤدى إلى تحقيق الفرد الكامل الذى يتعدد فيكون منه المجتمع الفاضل ، وفى الجزء الأول من كتاب « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » ذكرت شاهداً على الفائدة الاجتماعية الكبرى التى نجنيها من وراء هذه « المراقبة » ، فقد رووا أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان من عادته أن يطوف بالليل يتفقد شئون رعيته ، وذات ليلة كان يسير على عادته فى طرقات المدينة ومعه تابعه « أسلم » .

فلما طال المطاف بعمر استند إلى جدار بيت فى جوف الليل ، وإذا هو يسمع امرأة داخل البيت تقول لابنتها : قومى يا ابنتى إلى اللبن فاخلطيه بالماء .

فقالت لها الفتاة : أوما علمت ما كان من أمر أمير المؤمنين يا أماه ؟ .

قالت الأم : وماذا كان من أمره يا بنيتى ؟ .

فقالت الفتاة : لقد أمر مناديه فنادى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى الناس ألا يخلط اللبن بالماء ، لأن هذا غش وحرام ؟ .

قالت الأم وقد نام ضميرها : إنك فى موضع لا يراك فيه عمر ، ولا منادى عمر .

فاستنكرت الفتاة ذلك وقالت : يا أماه ، والله ما كنت لأطيعه فى الملا (أمام الناس) وأعصيه فى الخلا (أثناء الانفراد) ، إن كان عمر لا يرى فرب عمر يرى !! ..

فنحن نرى أن نزعة التدين أو صدق المراقبة عند الفتاة منعها وصدها عن ارتكاب جريمة الغش ، دون أن تحتاج إلى شرطى يحرس ، أو معاقب يردع ، لأن « الوازع الدينى » قد قام بخير من ذلك وأنفع ، فقد حفظ صاحبه من ارتكاب الأذى فى سائر الأحوال .

والوازع هو القوة الرادعة المانعة من ارتكاب المنهى عنه ، وللدين وازع ، كما أن للقانون وازعا ، وشتان بين وازع هذا ووازع ذاك ، فإن القانون من وضع البشر ، وطاقة البشر محدودة مهما كانوا أقوياء ، ولكن الدين من وضع الله الذى يعلم السر وأخفى ، والذى أحاطت قدرته بكل شىء ، والقانون يحاسب على ما ظهر وثبت وقامت عليه شهادة الناس وقرائن المادة ، بينما الدين يحاسب على ما بدا وما خفى ، وما استعلن وما استتر ، ولا يحتاج صاحبه إلى شهادة ، لأن الله تعالى « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » ، وهو القائل عن ذاته : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والقائل : « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور » ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ . والقانون يعاقب بعقوبة مادية ودنيوية ، والدين يعاقب على الجريمة بعقوبة مادية ومعنوية ، وبعقوبة دنيوية وأخروية . والقانون لا يعطى لمن أحسن التصرف مكافأة ، ولا يثيب من هم بجريمة ثم تركها ، ولكن الدين لا يقتصر على عقوبة العاصى ، بل يثيب المستقيم المحسن : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

والدين يثيب على الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، والله واسع عليم ، ومن هم بمعصية ثم انتهى عنها فلم يفعلها يثيبه الدين على ذلك ، ويعتبر رجوعه عنها مجاهدة تستحق حسن الجزاء .

ومن هنا يتضح لنا أن وازع الدين أقوى من وازع القانون ولسنا بهذا نلغى قيمة القانون أو نحقر من شأنه ، فللقوانين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العادلة المستقيمة أثرها وثمرها ولكننا ، نقول إن هذه القوانين تفقد أكبر أثر لها إذا لم يكن عند المتعاملين بها وازع دينى يذكرهم بمراقبة من خلقهم وأبدهم ، ومنه مبدؤهم وإليه معادهم : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إن هذا الوازع الدينى إذا عمر صدر صاحبه هو الذى يجعل المرء يحفظ حق ربه وحقوق الناس فى السر والعلن ، وفى الاجتماع والانفراد ، لأن كمال هذا الوازع يبلغ بالإنسان مرتبة الإحسان الذى يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذا الوازع هو الذى يجعل المؤمن متذكرا ومتدبرا لقول القرآن الكريم عن الله عز وجل : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » .

ويتجلى لنا سلطان الوازع الدينى من الحادثة التالية ، فقد رووا عن الأسلاف أنه كان لبعض الأئمة تلميذ مخلص ، فكان يكرمه ويقدمه على زملائه ، فتألم من ذلك أقرانه ، فأراد الإمام أن يظهر لهم فضله ، فأعطى لكل منهم طائرا ، وأمره بأن يذبحه فى مكان خال لا يكون فيه أحد ، وتفرق الزملاء وعادوا بعد حين وكل منهم قد ذبح طائره ، إلا ذلك الشاب الممتاز فإنه عاد بالطائر حيا ، فقال له الإمام : لماذا لم تذبح الطائر كما أمرتك؟ . فقال له : ياسيدى لم أجد موضعا خاليا لا يرانى فيه أحد ، لأن الله مطلع على وموجود معى فى كل مكان .

فاستحسن القوم منه هذه المراقبة وقالوا لشيخهم ، يحق لك أن تكرمه وتقدمه ! .

وثمة موقف آخر تتجلى فيه روعة الوازع الدينى ، فقد دفع الطيش بشاب إلى مراودة فتاة ، فصدته عما يريد من الإثم ، وقالت له : ألا تستحي؟ . فأجابها : وممن أستحى ونحن منفردان ولا يرانا سوى الكواكب ؟ . فقالت له : فأين مكوكبها ؟ . يعنى فأين صانعها ومبدعها وواضعها ورافعها والقائم على أمرها فى كل وقت وحين : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » .

فاتعظ الشاب وارتدع .

ولقد ترجم الشاعر المؤمن عن مقتضى الوازع الدينى فى نفس الإنسان بقوله :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ، ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدا للناظرين قريب ؟

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والوازع الدينى المغروس فى صدر المؤمن الصحيح الإيمان هو الذى يجعل صاحبه يتذكر على الدوام أن كل مايفعله محصى عليه ومحاسب به ، وأن كل كلمة تخرج من فمه ، ستكون له أو عليه : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأن هذا الحساب سيشمل الصغيرة والكبيرة ، والقليلة والكثيرة . ولذلك يقول القرآن الكريم : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ويقول أيضا : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

* * *

وإذا تذكرنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « الدين المعاملة » ويقول : « أحب للناس ما تحب لنفسك » ، فهمنا أن سلطة « الوازع الدينى » التى يربيها الدين فى النفوس ستلازم صاحبها فى جميع تصرفاته ومعاملاته واتصالاته بالناس من حوله ، فيكون بهذا مثلا من أمثلة الاستقامة والمسالمة وحسن التصرف مع الناس .

ولقد جاء الإسلام الحنيف لتنظيم شئون الفرد والجماعة ، وليكون رائد المؤمن فى أمور العبادة وأمور الحياة ، وأقام الإسلام دعائم مجتمعه على « الأسرة » باعتبارها اللبنة المتينة الحصينة التى تجعل روابط هذا المجتمع عميقة وثيقة ، لأن الأسرة تتكون من شريكين يرتبطان بعقد تلحظه عناية الله ، وتوثقه كلمة الله ، ثم تكون للشريكين حياة مشتركة ، وبيت مشترك ، وآمال مشتركة ، وتبعات مشتركة ، ثم تكون لهما ذرية تزيد الروابط الأسرية وثاقة وعمقاً فكانت أول خدمة اجتماعية نكسبها عن طريق الدين أنه بنى لنا المجتمع هذا البناء القوى المحكم الذى يشد الأواصر ويقوى الروابط.

ولم يجعل الإسلام معنى « الأسرة » مقصورا على حياة هذين الشريكين وبيتهما ، بل علم الإسلام أبناءه أن ينظروا إلى الحى أو القرية أو المدينة على أنها « أسرة » أكبر نوعا ما وأوسع من أسرة البيت ، وأن ينظروا إلى أمتهم أو دولتهم أو مجتمعهم على أنه « الأسرة الكبيرة » الواسعة النطاق ، وأن الإنسانية أو البشرية هى « الأسرة الكبرى » التى تنتهى إليها غاية همته وعزيمته ، بعد أن يكون قد بدأ بأداء ما عليه من واجبات ، وتبعات إلى ما يسبق هذه « الأسرة الكبرى » من أسر أضيق منها نطاقا ، وهى بحكم ضيق نطاقها وبحكم قربها من صاحبها أولى بالتقديم فى العناية والرعاية ، وإن كان من الميسور فى كثير من الأحيان أن يوائم الفرد بين نهوضه بتبعات أسرته القريبة ونهوضه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بتبعات ما وراءها من أسر فى حدود الطاقة والإمكان بطبيعة الحال .

وهكذا نرى الإسلام يرقى بروح الفرد الاجتماعية طبقة فوق طبقة ، ودرجة من وراء درجة ، حتى يبلغ بها المستوى الاجتماعى المثالى العالمى ، وهو النظر إلى المجموعة البشرية نظرة الأخوة الإنسانية والزمالة العالمية .

* * *

والخدمات الاجتماعية المتعددة تحتاج أولا وقبل كل شىء إلى إمكانيات وطاقات ونفقات مادية ، والدين يهيىء لنا هذه الطاقات عن طريق ما شرعه من حقوق فى المال تؤدى إلى المجتمع ، كالزكاة التى هى فرض محتوم وحق معلوم ، يؤخذ من أموال القادرين والأغنياء ، ليرد على المحتاجين والضعفاء فى صورة معونات وخدمات .

وهناك ما شرعه الدين بعد الزكاة من حقوق أخرى مبسوطة فى مواطنها ، وماحث عليه من البر والإحسان والمعونة والإسهام فى وجوه الخير المختلفة ، ومادعا إليه من وجوه التعاون المادية على جهات الإصلاح والتعمير والقوة ، وعلى مقاومة وجوه الفساد والشر والضعف ، وذلك حيث يقول القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

والحديث النبوى الشريف يقول : (الله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه) .

وينبغى ألا يقتصر نظرنا إلى « الزكاة » مثلا على أنها نقود أو أشياء تؤخذ من هذا لتعطى لذاك ، بل ينبغى أن ينفسح نظرنا ليستوعب الخدمات الاجتماعية غير المباشرة التى تؤدى إليها الزكاة ، فالزكاة فى الواقع تستتبع العمل والإنتاج والكسب ، إذ لكى يؤدى الإنسان زكاة ، لا بد له أن يملك نصابا ، أى قدراً معلوما من المال لا بأس به يستحق أن يدفع منه صاحبه نسبة مئوية معقولة هى الزكاة .

وبدون هذا المقدار لا يدفع الإنسان الزكاة ، وهى إحدى قواعد الإسلام ، فحينما يحرص الإنسان على تحليه بأداء قواعد دينه سيرى نفسه مندفعا إلى الكسب والإنتاج لكى يملك مايستحق الزكاة فيزكى منه فيكون قد نفذ بالفعل قاعدة من قواعد الإسلام ، وبخاصة أن رسول الإسلام محمدا عليه الصلاة والسلام يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، واليد العليا يراد بها اليد المعطية المنفقة ، واليد السفلى هى اليد التى تمتد لتأخذ معونة الغير ، وقد كان يمكنها أن تعمل فتملك فتستغنى .

والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » .

أحمد الشرباصى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ١ —

تعريف :

في لسان العرب : (١) « والملحمة : الوقعة العظيمة القتل ، وقيل : موضع القتال ، وألحمت القوم : إذا قتلتهم حتى صاروا لحما .

وفي الحديث : « اليوم يوم الملحمة » (٢) ، وفي حديث آخر : « ويجمعون للملحمة » : هي الحرب ، وموضع القتال ، والجمع : الملاحم . مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها ، كاشتباك لحمة الثوب بالسدى وقيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها ، وألحمت الحرب فالتحمت ، والملحمة : القتال في الفتنة حيث يقطعون لحومهم بالسيوف . قال ابن برى : شاهد الملحمة قول الشاعر :

بملحمة لا يستقل غرابها
دفيفا ويمشي الذئب فيها مع النسر (٣)

وقد ذكر ابن خلدون فيما ذكر عن تعريف لفظ « ملحمة » : أنه يدل على « ذكر حدثان الدول » (١) .

هذا هو أهم جانب في المدلول « اللغوي » للفظ « ملحمة » .

ولكن الدراسات الأدبية الحديثة قد خصصت مدلول هذا اللفظ ، وجعلته يطلق في محيط تلك الدراسات — على لون من القصائد تتميز بخصائص معينة : كالطول ، والموضوعية ، والحديث عن الحروب ، وإطلاق العنان للخيال في تصور مشاركة الآلهة — كما كان يزعم الأقدمون — للبشر في المعارك .

والمنبع الأول الذي استقى منه النقاد تلك الخصائص ، هو إلياذة هوميروس .

عرف جورجي زيدان الملحمة بأنها : « عبارة عن قصائد طويلة تسرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة ، وأكثرها دينية ، وأبطالها الآلهة ، ومعظم حوادثها عنهم وبهم ، كما في إلياذة هوميروس عند اليونان ، و « مهابهارتا » عند الهنود (٢) .

---

(١) ج ١٦ للطبعة الأميرية ١٣٠٢ ص ١٠ مادة « لحم » . (٢) يوم فتح مكة .

(٣) لا يستقل غرابها دفيفا : يحرك جناحيه مطمئنا ولا يسرع الى الطيران لكثرة ما يجد من اللحوم ، ويمشي الذئب فيها مع النسر : كناية عن كثرة القتلى ، إذ يجد كل مفترس ما يشغله عن النظر الى ما عند غيره .

(١) المقدمة ص ٣٣٤ طبعة التجارية .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٦١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وللأستاذ أحمد حسن الزيات بحث قيم (١) قسم فيه الملحمة إلى طبيعية وصناعية واعتبر أن خصائص الملحمة كما وجدت عند هوميروس من حيث الخيال والخرافة والطول لا توجد لها نظائر فى الشعر العربى اللهم إلا فيما وجد من الشعر العامى مثل قصص بنى هلال فإنه يشبه إلى حد كبير خصائص الملحمة .

وقد تحدثت مع سيادته فى هذا الشأن فقال : ـ إنه من الممكن اعتبار المطولات التى تشتمل على معارك وأحداث جسام ـ ملاحم على سبيل التجوز . فحمدت له ذلك .

ويرى الدكتور طه حسين أن شعر الملاحم لا يعتمد على ذكر الأبطال والحروب ليس غير ، وإنما هو يعتمد على ذلك ، وعلى أشياء أخرى ، منها اللفظى ومنها المعنوى فهو فى لفظه طويل مسرف فى الطول تبلغ القصيدة من قصائده آلافا من الأبيات وهو فى لفظه مقيد بألوان من اللفظ ، والموسيقى وهو فى معناه يذكر الحروب والمحن وبلاء الأبطال فيها ولكنه يذكر الآلهة ويستوحيهم ما يريد أن يقول ثم هو فى معناه اجتماعى يفنى شخصية الشاعر فناء تاما أو كالتام فى الجماعة التى يصفها من جهة والجماعة التى ينشدها من جهة أخرى وليس فى الشعر العربى شىء من هذا (٢) يقصد أنه لا يوجد فى الشعر العربى ما تنطبق عليه كافة هذه الصفات .

وفى مقدمة الإلياذة أن (١) : إلياذة هوميروس ملحمة من الشعر القصصى بالنظر إلى ما تضمنه من سرد الوقائع والأخبار وما تجاوزت به إلى ما وراء الطبيعة من شئون الآلهة وملابستهم للبشر فى أعمالهم ، وإيضاح حقائق الفضائل والرذائل بطريق الأخبار .

ولقد تحدث البستانى فى مقدمته عن سبب خلود الإلياذة ـ ومعها الأوديسا ـ وأرجع ذلك إلى الأسلوب الذى سلكه هوميروس فى عرض أفكاره ونسج عباراته :

« فإن هوميروس إنما نقر على أوتار الأفئدة فأثارها ونفخ فى بوق الأرواح فأطارها ومزج الحقيقة بالخيال مزجا يخيل لك أنهما تآلفا فتحالفا ، وسير أعماق النفس فى سذاجتها وتحرى الفطرة فى بساطتها ، وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجملاء لا تشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الإسهاب وأوجز موضع الإيجاز ومثل تمثيلا صادقا عن عقيدة وإخلاص الخ ... (١)

الملحمة فى الشعر العربى :

ويعنينا فى بحثنا هذا أن نشير إلى علاقة الملحمة بالشعر العربى .

---

(١) « فى أصول الأدب » ٢٢٦ ـ ٢٤٢ .
(٢) الأدب الجاهلى ص ٣٥٦ .

(١) لبطرس البستانى طبعة ١٩٠٤ ص ١٦٤ .
(١) مقدمة الإلياذة ص ٦١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إن هوميروس قد صور في ملحمته «الإلياذة» أحداث العام الأخير من الصراع الذى كان بين اليونان وطروادة واستمر عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالا بين الفريقين. وتزعم الأسطورة اليونانية أن السبب في هذه الحرب أن ملك طروادة التى كانت تقع فى آسيا الصغرى بمحاذاة الدردنيل، اختطف هيلانة زوجة مينلاوس ملك اسبرطة فاستصرخ أمراء اليونان واستنجد بهم، وتألف منهم حلف قوى يرأسه أغاممنون الملك الجبار، واستنجدت طروادة بأمراء آسيا الصغرى، فأنجدوها، وفى نهاية الأمر تغلب اليونان وسقطت اسبرطة فى أيديهم كما استطاع مينلاوس أن يسترد زوجته من خاطفها.

وقد جعلت الإلياذة بعض أبطال هذه الحرب من البشر، وبعضهم من الآلهة وأنصاف الآلهة، وجعلت لهؤلاء الآلهة أدواراً خطيرة فى سير دفة الحرب إذ كان بعضهم يقف إلى جانب اسبرطة مثل بختون وأثينا وبعضهم كان يقف إلى جانب أهل طروادة مثل المريخ وأفروديت.

ومثل هذا التصوير لا نجد له أثراً فيما وصل إلينا من الشعر العربى الجاهلى. وكل ما وصلنا من هذا الشعر إنما يعبر عن أحوال المجتمع والمعارك والحالات النفسية للأشخاص دون أن يكون هناك تدخل من آلهة أو أنصاف آلهة ...

ومن هنا ذهب بعض النقاد من أمثال «أرنست رينان» إلى أن الشعر العربى الذى تمثله القصيدة إنما يعبر عن إحساس شخصى، وحالة نفسية خاصة، والأبطال فى هذا الشعر هم نفس منشئيه، وهذه الصفة الشخصية التى فى الشعر العربى والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية، وهى انعدام العقلية الخالقة، ومن هنا لا تجد عندهم أثراً للشعر القصصى والتمثيلى (١).

ولم يكن هناك من باعث على هذا الحكم إلا خلو الشعر العربى من الحديث عن الآلهة واشتراكها فى الوقائع كما فى إلياذة هوميروس.

فى حين يرى فريق آخر (٢) أن شعر العرب فى الحديث عن الحروب وقصصها وأبطالها كقصائد عنترة، ودريد بن الصمة ومهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد ... وغيرهم كل ذلك وشباهه ينبغى أن يعد من الملاحم، ويرى هذا الفريق أن تطبيق تلك الصفات الخاصة لا يكاد ينطبق إلا على إلياذة هوميروس، وإلياذة فرجيل لتأثره بها، وإلا خرج من باب الملاحم

(١) راجع «النابغة الذبيانى» للأستاذ عمر الدسوقى الطبعة الثانية ص ٦٥.

(٢) من هؤلاء المستشرق (أربرى) هامش ١٦٧ من كتاب (شوقى ـ شعره الإسلامى) للدكتور ماهر حسن والدكتور طه حسين لا ينفى وجود شعر قصصى يشبه الملاحم فى أكثر أهدافها كما سنرى ...

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفردوس المفقود لملتن، والكوميديا المقدسة لدانتي وملحمة أورلاندو التي تصف المعارك بين المسيحية والوثنية في عهد انتشار المسيحية بأوربا وشاهنامة الفردوس الفارسي.. وغيرها..

أقدمية الملحمة العربية :

وهناك أسئلة تتردد نحاول الإجابة عليها : هل حقيقة أن العرب لم يعرفوا شيئاً عن الملاحم إطلاقا ؟ وإذا عرفوا شيئاً من ذلك، فمتى كان هذا ؟ ولماذا لم يستمر عندهم ؟؟

إن الأدلة التاريخية تدل على أن العرب في أوليتهم قد عرفوا الملحمة قبل هوميروس بأجيال ولكن في بيئة غير شبه الجزيرة وأن هوميروس كان متأثراً بما نقل إلى اليونان من آثار بابل الأدبية التي ترجع في أصلها إلى عقلية عربية.

« فالمعروف الآن بين العلماء الباحثين في أحوال الجغرافية البشرية أن أصل سكان العراق وبابل وآشور وفينيقية كانوا قد نزحوا في الأصل من شبه جزيرة العرب في موجات متدرجة، واستوطنوا تلك الأقاليم. جاء في مجلة العلم الحديث (ج ٢ ص ٧٢٨) عن المؤرخ « باتون » الأمريكي « أن أول مهاجرة سامية ذكرت في التاريخ هي مجيء جماعة من الساميين إلى البقعة بين مصبي دجلة والفرات ». ولم يذكر « باتون » زمن هذه الهجرة، ولكنه أثبت لهؤلاء المهاجرين حضارة زاهرة في ذلك القطر في القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد.

وذهب العلامة (سايس) الانجليزي إلى « أن قبيلة من الساميين يقال لها كلدة - (وكلدة مؤسس دولة الكلدان وهو شيخ عربي - مجلة لغة العرب للأب أنستاس الكرملي ج ٢ ص ٥٧٨) - كانت نازلة عند مصب النهرين، وأنها طليعة قبائل النبط والآراميين الذين نزحوا من شمال بلاد العرب ونزلوا القطر البابلي مخيمين على ضفاف الفرات، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية.

إذا كانت الهجرة العربية إلى مناطق العراق وبابل قديمة العهد جداً ويرى المؤرخ « باتون » أنها ترجع إلى أكثر من ستة وثلاثين قرناً قبل الميلاد [1].

إذا عرفنا هذا أمكن اعتبار الآثار الأدبية التي نشأت بعد ذلك في بابل ذات صلة وثيقة بالعقلية العربية، وأن هذه العقلية لا بد أن تأخذ اتجاها يتناسب والبيئة المستقرة بين النهرين ويختلف عن نظائره في قلب الصحراء، حيث لا استقرار...

(١) اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب للسيد محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ ص ٧ وراجع : تاريخ الآداب العربية لجورجي زيدان ج ١ ص ٢٢ والعرب قبل الإسلام ج ١ ص ٤٩.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ملحمة جلجميش :

وقد جاء فى قصة الحضارة :

« ومن أروع الآثار الأدبية التى خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحا محطما ، وجدت فى مكتبة آشور بأنيبال ، وهى الآن فى المتحف البريطانى ، وقد كتبت على هذه الألواح : « جلجميش » الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ، ضمت بعضها إلى بعض فى عهود مختلفة ، يرجع بعضها إلى أيام السومريين ، أى إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام ... » (١) .

وبالرجوع إلى نص هذه الملحمة نجد أن البطل جلجميش ثلثاه من عالم الآلهة وثلثه من عالم البشر ، وقد وقعت فى حب الآلهة « أشتار » ولكنه لا يبادلها الحب فتشكوه إلى « آنو » الإله الأعم ، وتدور خلال ذلك معارك ووقائع ، ونرى خرافات وأساطير ، والخيال الواسع ، والحوادث الخارقة الطبيعة ، وإشراك الآلهة مع الإنسان فى التكوين وفى الصراع ...

كان جلجميش بطل القصة حاكما أسطوريا لأروك أوارك وهو من نسل شمس - نيشتين الذى نجا من الطوفان ولم يمت قط ، ويدخل جلجميش القصة فى صورة مركبة من صورتى أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ضخم الجسم ، مفتول العضلات جرىء مقدام ، يفتن الناس بجماله :

ثلثاه إله .

وثلثاه آدمى

لا يماثله أحد فى صورته .

يرى جميع الأشياء ولو كانت فى أطراف العالم .

كابد كل شىء ، وعرف كل شىء .

واخترق شعار الحكمة الذى يحجب كل شىء ورأى ما كان خافياً .

وكشف الغطاء عما كان مغطى .

وجاء بأخبار الأيام التى كانت قبل الطوفان (١) .

ومن هنا تتركز عناصر الملحمة التى أصبحت فيما بعد أساساً لخصائص الملحمة كما صورتها ملحمتا هوميروس .

فاذا عرفنا أن حضارة بابل القديمة قد انتقلت إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها ، وأن هذه المنطقة كانت حلقة اتصال بين بابل واليونان وأن العقلية اليونانية قد احتكت بالعقلية البابلية وتأثرت بها ، وأخذت عنها ألوانا من الثقافات التى عرفتها بابل فى تلك الأزمان السحيقة ، فلا نستبعد أن تكون ملحمة جلجميش قد انتقلت فيما

(١) قصة الحضارة تأليف « ديورانت » وترجمة محمد بدران الجزء الثانى من المجلد الأول ص ١٣٩ .

(١) من النص البابلى لقصة الطوفان من الملحمة ص ٢٣٩ قصة الحضارة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

انتقل وأنها كانت مصدر إلهام لهوميروس فى ملحمتيه فيما بعد ، ولا سيما وأن التشابه بين ملحمة جلجميش وملحمتى هوميروس واضح.

والمعروف أن هوميروس قد نظم ملحمتيه فى أزميرا وفى منطقة قريبة منها هى جزيرة « خيوس » أى منطقة « آسيا الصغرى التى كانت تعتبر موطنا ثانياً للحضارة البابلية [١].

على أن بابل هى التى أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذى أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ عن قصص أوربا الدينى ومن بابل لا من مصر جاء الجوالون اليونان إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم النحو وفقه اللغة وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة [٢].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سفر أيوب قد اعتبره بعض المؤرخين سفراً عربى الأصل ، لأن وقائعه تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربى فى القبيلة البدوية [٣]. وقد أشار « رينان » إلى أن هذا السفر أقرب إلى العربية من سائر أسفار التوراة العربية [٤] ومن ثم فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن أصل هذا السفر عربى ، قد نظم فى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، وأنه ترجم إلى العبرية فصار سفراً مقدسا وضاع أصله العربى.

وإذاً تتضح لنا قيمة عروبة ملحمة جلجميش وسفر أيوب فى أن هذا اللون من الإنشاد الأولى كان أسبق من عصر هوميروس فى بيئة سامية عربية الأصل ، وزمن سحيق.

واستناداً إلى الرأى التاريخى الذى يوجد صلة بين العرب فى شبه جزيرتهم وبين البابليين باعتبار أن أهل بابل كانوا قد نزحوا من الجنوب . . ثم الصلة بين بابل واليونان عن طريق آسيا الصغرى . . نستطيع أن نقول : إن فكرة الملحمة - كما عرفت عند هوميروس - قد نشأت من عقلية سامية بدائية عربية الأصل ، فى بيئة مناسبة منذ زمن سحيق.

أثر البيئة فى العقيدة والخيال :

أما لماذا لم تظهر مثل هذه الملاحم فى بيئة العرب الجاهلية على الرغم مما كان بينهم من معارك فنقول :

إن تعدد الآلهة عند الإغريق القدامى يختلف عما كان عليه تعدد العرب ، فالإغريق كان يعبد آلهة كثيرة تمثل مظاهر الكون المختلفة ... فالتعدد كان بالنسبة للفرد ، أما العربى فقد كان التعدد عنده بالنسبة للقبيلة ، أما الفرد فكان يدين - غالباً - لإله واحد [١].

وتعدد اليونان يوجد بلا شك فى الحياة

(١) بيئة العراق ص ٤٨ للدكتور حسن عون .
(٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٦٢ .
(٣) هامش الإلياذة للبستانى ص ١٦٨ .
(٤) المرجع السابق

(١) تاريخ القصة والنقد للأستاذ السباعى بيومى ص ١٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الفكرية العامة اهتماما بهؤلاء الآلهة ، وطبيعى أن يظهر ذلك فى إنتاجهم الأدبى .

وكيفما كان الأمر فى وثنية العرب فإنهم « لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة ، ولقد وصلوا فى قرارة أنفسهم إلى معرفة خالق الوجود ووحدانيته فآمنوا به ، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحيانا عن طريق الأوثان ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلى التام »[1] .

ولئن اتجه الخيال اليونانى فى تصور اشتراك الآلهة فى الحروب نتيجة لعقيدة التعدد والبيئة التى عاش فيها وما اشتملت عليه من جبال وخلجان . فقد اتجه الخيال العربى الجاهلى إلى ما أوحت به بيئته المترامية الأطراف ، فبدلا من أن يتصور المعارك بين الآلهة بعضهم وبعض أو بين الآلهة والبشر كما فعل الفكر اليونانى فإنه تصور الغول والجن والرئى ، و « الهامة » وشياطين الشعر والكهانة ...

« فلا يستغرب من ذلك البدوى الضارب فى الصحراء إذا ضل طريقه ونفذ زاده ، ولفحته الشمس بوجهها المحرق ، أن يتصور أنه فى طريق الهلاك وأن يستوحش حياته ، وهو فى شعوره بالهلاك يتصور أنه سيغتال (ومن هنا نشأت كلمة غول) بمعنى الهلاك ، أما الوحشة فهى تحتاج إلى أنيس وعندما يرى السراب ويسعى إليه يخيل إليه أنه يخاطب رجلا مثله ، ثم لا يلبث أن يختفى ذلك الذى يراه ، ويحس الأعرابى أنه قد جن . (أى استتر فى الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها أمام عينيه) ثم صار يتصور أن هذا الرئى يراه ويسمع له ويسمعه أحيانا فأطلق عليه اسم « الجن » ... »[1] .

ومعلوم أن العرب كانوا يعيشون فى هذه الصحراء المترامية الأطراف عيشة تعتمد على الرحيل والانتقال سعيا وراء الكلأ والماء ، وكثيرا ما أدت طبيعة حياتهم هذه إلى إثارة الحروب بينهم ، ولقد سجل الشعر الجاهلى كثيرا من أخبار هذه الحروب سواء فى شعر الفخر والحماسة ، أو شعر الهجاء والرثاء .

وعلى الرغم من كثرة ما قاله العرب فى الحروب وأوصاف المعارك وأدوات القتال ، فقد أخذ عليهم خلو شعرهم من « الملاحم » أو الشعر القصصى الذى يرويه الشاعر ويتحدث فيه عن المعارك التى شبت بين عدد من الفرسان ، ويصف أحوال المجتمع ويتعرض للديانات والآلهة - كما فعل هوميروس فى الإلياذة ...[2] .

ولو دققنا النظر نجد أن ماينكره الأوربيون - ومن لف لفهم - من « خلو الشعر العربى من الملاحم » إنما هو خلو الشعر من الحديث عن الآلهة واشتراكها فى الحروب ... ثم الطول الذى وجد فى الإلياذة وليس له نظير فى الشعر العربى .

دكتور سعد الدين الجيزاوى

(١) ملخص من الفتوة عند العرب ص ١١٢ .
(٢) النابغة الذبيانى ص ٦٣ .

(١) الفتوة عند العرب ص ١٠٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرات فى التصوف والأدب :

الصّوفيّة وعلاقتها بالزّهد

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

لحن من ألحان الإيمان ينساب فى تضاعيف الحياة ، فيحيل قسوتها حناناً ، وأزاهير فواحة بالحب والشوق فى دنيا الناس المليئة بالشوك والعوسج ، ونسمات من روح الله تهب ، فتتعلق بها القلوب ، وتدهش لعظمتها النفوس ، وتتطامن لها قوى الأرض جميعاً إجلالا وإعظاما ، ونفحات من الجنة عطر الله بها الأرض على مرّ العصور والأزمان .

وأولئك هم الصوفية الذين سعوا إلى الله فلم يعبئوا بما سواه ، وتطلعوا إلى جماله الباهر فلم يرق فى عيونهم ما عداه ، ورأوا بأرواحهم الصافية أن ما عند الله خير وأبقى ، فسلكوا طريقه .

والزموا أنفسهم دوام المجاهدة ، وشدة المكابدة ، وحفظ الأوقات ، واغتنام الطاعات . ومفارقة الراحات ، والتلذذ بما أبدوا به من المطالعات ، وصيانة ماخصوا به من الكرامات ، لا عن المعاملات انقطعوا ، ولا إلى التأويلات ركنوا ، رغبوا عن العلائق ، ورفضوا العوائق ، وجعلوا الهموم هما واحداً ، ومزايلة الأعراض طارفا وتالداً ، اقتدوا بالمهاجرين والأنصار ، وفارقوا العروض والعقار ، وآثروا البذل والإيثار ، وهربوا بدينهم إلى الجبال والقفار ، احترازاً من موامقة الأبصار ، أن يومى إليها بالأصابع ويشار لما أنسوا به من التحف والأنوار ، فهم الأتقياء الأخفياء ، والقرباء النجباء ، صحت عقيدتهم ، فسلمت سريرتهم » (١) .

رفضوا الدنيا وركلوها ، وأشاحوا عن نعيمها وحقروه ، وضاقوا بقيودها ورسومها ، فسعوا إلى الانطلاق والانعتاق ، وقطعوا العمر فى الرياضات والمجاهدات ، حتى صاروا ذوى مواجيد وأذواق ، فكل حدث بما وجد وعبر عما ذاق .

لهذا حينما تتحدث عن الصوفية يعييك القول الجامع ، ويعجزك الحد المحيط ، حتى قال القشيرى فى ذلك ... وتكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ والصوفى من هو ؟ فكل عبر بما وقع له (٢) .

والصوفية قوم يبغضون الحدود ويكرهون الرسوم ، ويعافون القيود ، ويأبونها

(١) حلية الأولياء ج ١ ص ٢٤ .
(٢) رسالة القشيرى ص ١٠٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كل الإباء ، ولذلك قال بعض المستشرقين : « إن التصوف لا يمكن أن يعد مذهبا وضع على أصول بينة فى الجماعة الإسلامية ، ولا يمكن جمع مسائله على أمور مطردة (١) .

فلا تستطيع أن تضع له تعريفا جامعا مانعا ، باعتباره مذهبا ، أو علما ، أو فكرة ، وهو على تشاكل مقاصده ، وتقارب سبله يختلف باختلاف المتصوفين أنفسهم ، ويتلون تبعا لنزعاتهم ، ذلك لأن للمشاعر النفسية ، والأحاسيس الوجدانية فى توجيهه وتكييفه أثراً كبيراً ، وقد أدرك الصوفية أنفسهم هذا ، فقد روى عنهم أن الطريق إلى الله كعدد أنفس بنى آدم .

تعريفات الصوفية للتصوف :

ولمشايخ الصوفية فى التصوف والصوفى كلام كثير سنورد طائفة منه فهو عند الجريرى « الدخول فى كل خلق رضىّ والخروج من كل خلق دنىّ » (٢) .

وعند القصاب « أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام » (٣) .

وعند سمنون « أن تملك شيئاً ولا يملكك شىء » (٤) .

وعند رويم « استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد » (٥) .

وعند معروف الكرخى « التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق » (١) .

وعند الجنيد « أن يميتك الحق عنك ويحييك به ، أو « أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة » (٢) .

فأنت ترى من هذه الأقوال المتعددة صحة ما ذهبنا إليه من عدم وجود تعريف ثابت ، وقد مرّ بك أن بعضهم عرفه أكثر من تعريف ، كما رأيت عند الجنيد .

وكما تعددت أقوالهم عن التصوف ، تعددت أيضا عن الصوفى .

تعريفات الصوفية للصوفى :

فالصوفى عند ذى النون : من إذا نطق أبان عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق (٣) .

وهو عند الحلاج « وحدانى الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا وعند الجنيد « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح ، وعنده أيضا « أنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالمطر يسقط على كل شىء (٤) .

---

(١) التصوف وفريد الدين العطار ص ٧ .

(٢،١) رسالة القشيرى ص ١٢٦ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمى تحقيق نور الدين شريبة ص ١٩ .

(٤،٣،٢) رسالة القشيرى ص ١٢٦ .

(٥) رسالة القشيرى ص ١٢٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأجمع ما يقال عن الصوفية أنها ليست مذهبا من المذاهب الإسلامية وإنما هى نزعة فلسفية اعتقد أصحابها أن فى مقدورهم تفسير القرآن الكريم تفسيرا يغاير معتقدات غيرهم ، ولكنه يفسر مقاصدهم الخاصة (١)

اشتقاق لفظ تصوف .

وكما تعددت الأقوال فى التصوف والصوفى من ناحية تحديد المعنى لكل منهما ، لم تتفق كلمة الباحثين على الأصل الذى أخذ منه لفظة « صوفى » من ناحية الاشتقاق .

فذهب قوم إلى أنها مأخوذة من الصفاء لأنهم قوم صفت نفوسهم من كدورات الدنيا وعلائقها ، ولهذا يشير الشاعر :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وهذا الرأى ، وإن كان لا اعتبار عليه من ناحية المعنى إلا أنه لا يتفق مع قواعد اللغة التى تقول إن النسب إلى الصفاء صفائى .

وقال فريق آخر : أنها مأخوذة من الصف الأول لما لهم من سابقة وتقدم فى العبادة ، وهذا الرأى أيضا مردود بالخطأ اللغوى .

ومن قائل : إنها نسبة إلى بنى صوفه قبيلة كانت حول البيت فى الجاهلية .

وهذا الرأى ، وإن كان لا يعارض قواعد اللغة ، إلا أن معرفتنا أن المسلمين كانوا ينفرون من كل ما هو جاهلى يبعد هذه النسبة والذى ارتضاه المتأخرون والباحثون المعاصرون أنه نسبة إلى الصوف ، لأنه كان مظهرا من مظاهرهم فى لباسهم .

وهذا الرأى على هذا يتمشى من ناحية المعنى والقياس ، فصوفى نسبة إلى الصوف ، والتصوف مصدر الفعل الخماسى تصوف ، إذا لبس الصوف ، مثل تقمص إذا لبس القميص ، والنفس إلى هذا الرأى أميل وإن كان أبو القاسم القشيرى - وهو من هو فى أخبار القوم - يرفض ذلك ، وهذا نصه : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة المتصوفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ، ولا اشتقاق ، وإلا ظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف (١) .

تاريخ ورود لفظ « صوفى ومتصوف »

كان المسلمون فى صدر الإسلام مقبلين

(١) التصوف الإسلامى العربى ص ٦٣ .

(١) رسالة القشيرى ص ١٤٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على الدين بشغف ورغبة ، فكان لا يشغلهم شاغل عنه مهما قوى وجل ، وظل الأمر كذلك فى عهد الصحابة والتابعين ، فكان الزهد والتقى والصلاح ، كانت هذه الصفات هى الطابع الغالب على المسلمين آنذاك ، لانصرافهم عن الدنيا ، وإقبالهم على مايقربهم من ربهم ، فلم يكونوا بحاجة إلى وصف يسمون به أنفسهم ، وكان المسلمون فى عهد الرسول صلوات الله عليه لايجدون شرفا أعلى ، ولا لقبا أسمى من الصحبة ، فسموا أنفسهم الصحابة ، ثم سمى من أخذ عنهم بالتابعين ، فلما ظهرت الفرق ، وادعى كل منها أن فيهم زهادا وعبادا ، اتسم أهل السنة المقبلون على العبادة والنسك باسم الصوفية والمتصوفة ، وصار ذلك سمة وعلامة لكل من يحيون حياة خاصة فيها زهد الزهاد ، وعبادة العباد ، وفقر الفقراء ، حتى صار علما يتميزون به عمن سواهم من المتدينين .

أول من أطلق عليه لقب صوفى :

ويذهب الباحثون إلى أن أول من أطلق عليه هذا اللقب هو أبو هاشم الكوفى الصوفى المتوفى سنة خمسين ومائة لتأثره فى حياته بما كان يختاره النبى صلوات الله وسلامه عليه ويختاره صحابته رضوان الله عليهم من بساطة فى العيش ورغبة عن الدنيا ، وزهد فى زخرفها وزينتها (١) .

هذا وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن لفظ صوفى قديم . وسابق حتى على الإسلام ، وبعضهم يذهب إلى أنه إسلامى ، لكن ظهر قبل هذا التاريخ الذى ذكرناه .

إلا أن المصادر الموثوق بها تعين التاريخ الذى ارتضيناه أولا ، وهو منتصف القرن الثانى الهجرى ، ويؤكد ما ذهبنا إليه ، أننا حين نستعرض أمهات الكتب التى أرخت للتصوف وكتبت عن رجاله وأفاضت فى أحوالهم ، وطرقهم ، نجدها حينما تتكلم عن شيوخ الصوفية لا تذكر من تقدم على هذا التاريخ ، كما نرى فى رسالة القشيرى بل إن عبد الرحمن السلمى أستاذ القشيرى فى كتابه طبقات الصوفية نراه قسمهم أربع طبقات ، وجعل رأس الطبقة الأولى الفضيل بن عياض ، والفضيل توفى سنة سبع وثمانين ومائة ، فمن هذا يتبين لنا أن الصوفية أنفسهم لم يتعدوا به ذلك التاريخ .

العلاقة بين الزهد والتصوف :

عرفنا فيما سبق أن الزهد كان نزعة غالبة على المسلمين فى الصدر الأول من الإسلام ،

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٢ ، دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٧٦ الحياة الروحية فى الإسلام ص ٨٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأن الناس إلا القليل منهم لم تكن تشغلهم الدنيا وما فيها عن الاتجاه إلى الله، والإقبال على طاعته.

فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامى، ودرت أخلاف الرزق على المسلمين، وكثرت فى أيديهم الأموال، ورأوا ما فى الأمم الأخرى من ترف ونعيم، شاركوا بدورهم فى هذا، وأقبلوا على الدنيا يعبون من خيراتها، وينهلون من طيباتها، حتى غرقوا فى نعيمها، ويقول ابن خلدون فى ذلك: «الصوفية من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه ومال، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة، وقد كان ذلك فاشيا فى الصحابة والسلف، ولما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، ورضخ الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة»[1] اهـ.

من هذا النص يتبين لنا أن الصوفية كانت رد فعل لموجة الترف التى اجتاحت العالم الإسلامى آنذاك، وكانت صرخة روحية خالصة فى وجه المادية الجارفة التى أوشكت أن تفتن الناس عما فى دينهم من سمو وروحانية.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأنهم تأثروا بحياة الزهاد السابقين إلا أنهم لم يقفوا عند ذلك؛ بل تقدموا خطوة أخرى.

فإن كان الزهاد قد طرحوا الدنيا خوف الحرمان من الآخرة، فإن الصوفية لم يكتفوا بذلك؛ بل جاهدوا وعملوا؛ لأن الله سبحانه حقيق بأن يعبد، فلم يعبدوه طمعاً فى الجنة، ولا خوفا من النار؛ بل رجوا بذلك استشراف وجهه الكريم والتمتع بجماله الأزلى كما قالت رابعة العدوية «إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من نارك فاحرقنى بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة فى جنتك فاحرمنيها، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى»[1].

فالزاهد لا يكون صوفيا؛ لكن الصوفى لا بد أن يكون زاهدا؛ لأن الزهد والفقر هما الخطوة التى يجتازها الصوفى حتى يلج باب الصوفية، وبغير ذلك لا يستطيع أن يمشى فى ركابهم، من هذا نستطيع أن نقول: إن هناك صلة بين الزهد والتصوف تشبه الصلة الأبوة بالبنوة، أو المقدمة بالنتيجة؛ فإذا أخذنا بهذه الفكرة القائلة بانبثاق التصوف عن الزهد يبدو لنا فى أول الأمر أن الفرق بينهما لا يكاد يوجد، إلا أننا حين نسير مع

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧.

(١) التصوف الإسلامى العربى ص ١٤٢.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الصوفية حتى تتطور وترتكز بجماعة لها مبادئ خاصة نستطيع أن نلمح فروقا واضحة نجملها فيما يأتى :

الفروق بين الزهد والتصوف :

أولا : فرق فى الغاية ، فالزاهد يرغب عن الملذات ، ويتحمل شظف العيش وشقاءه ويعانى مرارة الحرمان ، ويقاسى آلامه مقبلا على ذلك حريصا عليه ، آملا فى ثواب الله ، وطامعا فى جنته ، أما الصوفى فيقبل على هذا الضرب غير ناظر إلى ثواب آجل ، إنما همه الوصول إلى الله ومعرفة ذاته .

ثانيا : فرق فى الفكرة فالزاهد متمثل لجبروت الله وبطشه وقهره وعقابه ، والصوفى ناعم فى كرمه ولطفه ويعتد ذلك محبته .

ثالثا : فرق عام ، وهو عموم الزهد فى كل عصر وقطر وأرض وجيل ودين ، أما الصوفية فنزعة خاصة أوجدتها عوامل شتى فى رحاب الإسلام ، وتحت رعايته الخاصة [1] .

من هذا الذى بيناه يتجلى أن التصوف أرقى من الزهد ، وأن الزهد ما هو إلا تمهيد لظهور التصوف ، يمهد النفوس إلى الأحوال الروحية المشرقة ، والنفحات القلبية الصادقة التى هى روح التصوف وقوامه ، وسبيل الصوفى إلى كشف الحقيقة ، وأن الزهاد كانوا النواة لمن أتى بعدهم من طبقات الصوفية .

محمد إبراهيم الجيوشى

(١) نفس المصدر ص ٢٦ ، ٢٧ .

أدب الحديث والاستماع

قالوا : من حسن الأدب ألا تغالب أحدا على كلامه ، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا حدث بحديث فلا تنازعه إياه ، ولا تقتحم عليه فيه ، ولا ترى أنك تعلمه ، وإذا كلمت صاحبك فأخذته حجتك فحسن مخرج ذلك عليه ، ولا تظهر الظفر به ، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شخصية المسلم

للأستاذ الحسيني أبو فرحه

في هذه الأيام التي تتنازع الناس فيها تيارات فكرية مختلفة ومناهج للحياة متباينة. يتلفت المسلم حوله فيرى في واقع الحياة ألواناً مختلفة ونماذج متباينة للشخصيات. تتحارب وتتصارع وتتنازع. فهناك الشخصية النفعية وهناك الشخصية الأريحية، وهناك غير ذلك كثير بين هذه وتلك.

فأين موقع الشخصية الإسلامية بين تلك الشخصيات.

هل هي تلك الشخصية المنزوعة عن الدنيا المتنكرة لها المعرضة عنها تحيا عالة على غيرها؟ لا يمكن أن تكون كذلك وقد قال تعالى: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2].

أم هي الشخصية المتكالبة على حطام الدنيا وعرضها الحائل؟ لا يمكن أن تكون كذلك أيضا. وقد قال تعالى: «وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون»[1].

فما هي شخصية المسلم إذن؟

لقد رسم الإسلام صورة كريمة وضاءة المعالم لشخصية المسلم في الوحي بقسميه القرآني والنبوي. فلا نحتاج معهما إلى ما نكمل به تلك الصورة، أو نوضح به خطوطها وملامحها من غير هديهما.

ولقد نجح الإسلام في صقل النفس البشرية أكمل نجاح وأتمه، وأبرز تلك الصورة الكريمة الوضاءة في واقع الحياة فلم تبق مثالا أفلاطونيا لا حقيقة له في عالم الحس.

وعندنا نماذج إنسانية لا يحصيها عد نرى فيها بوضوح ملامح الشخصية المسلمة برزت واقعا حيا، يمشي على قدمين في أكمل وأتم ما رسمه الوحي بقسميه. في شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم أولا. وفي على أثره في كل زمان ومكان جم غفير. اشتهر منهم من اشتهر، واستتر منهم من استتر رغبة في ازدياد الفضل، وبعداً عن شهوة النفس.

---

(١) القصص ـ الآية ٧٧.

(٢) رواه البخاري.

(١) القصص ـ الآية ٦٠.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويحسبنا اليوم أن نرسم الخطوط العريضة التى توضح ملامح الشخصية المسلمة تاركين إكمال الصورة ، لأن ذلك يتطلب وقتاً أوسع .

وسنتكلم عن المسلم من هذه النواحى التالية :

(١) جسمه . (٢) عقله .

(٣) خلقه . (٤) إيمانه وغايته .

« جسمه »

المسلم حريص على عنايته بجسمه عناية كاملة . قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ، ورشح الله شخصاً للملك وزكاه لأنه أوتى بسطة فى العلم والجسم قال تعالى : « قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » (١) .

ويقر الإسلام مقالة ابنة شعيب عليه السلام فى تزكيتها لموسى ، فيرويها لنا رب العزة : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » (٢) .

ويضع الإسلام لهذه الغاية « قوة الجسم » منهجاً مفصلا .

فينهى نهيا مؤكداً عن كل ما يعترض هذه الغاية ، فيحرم الخمر والزنا وضررهما معلوم ، وكذلك يحرم كل ما يضر بالبدن من حشيش وأفيون وغير ذلك ، ويوصى بالاعتدال فى الطعام والشراب ، فيقول تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (١) .

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاءا شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (٢) ، ويأمر الإسلام بالصوم ومنافعه للجسد كثيرة ، فى حين ينهى الإسلام عن الإفراط فى العبادة إفراطا يضر بالبدن ، هذا عبد الله بن عمرو وقد أفرط فى العبادة ينصحه الرسول صلى الله عليه وسلم بالاعتدال ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت : بلى . قال : فلا تفعل قم ونم وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا » (٣) .

فالإسلام يأمر بالصوم حين لا يضر بالبدن ، وينهى عنه حين يضربه ويوصى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٧ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٦ .

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه

(٣) رواه البخارى واللفظ له . ومسلم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام بالرياضة البدنية ، فنرى نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه . يصارع ركانه ، ويسابق عائشة ، وفي الفقه الإسلامي باب كبير للسبق والرمي ، ويعنى الإسلام بنظافة الجسم وتجميله .

فالاستنجاء بعد قضاء الحاجة ، والاغتسال في مناسبات عديدة ، من الجنابة وغيرها ، وفي فقه الشافعية : « الاغتسالات المسنونة سبعة عشر غسلا » ، من أهمها غسل الجمعة الذي يتكرر كل سبعة أيام ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواك ويمس من الطيب ما قدر عليه »[1] . ويأمر الإسلام بقص الظفر وحلق الإبط والعانة ، ويؤكد الطب أن ترك هذه الأشياء يجلعها بؤراً خبيثة للكثير من الأمراض ، ويعنى بالأسنان عناية خاصة قبل أن تتنبه لذلك المدنيات الحديثة ، فيوصي بالسواك ، ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »[2] .

وهناك الكثير من الأمراض تجد في الأنف مرتعا خصبا وبين أصابع اليدين والقدمين ، والوضوء خير وقاية من هذه الأمراض ، حيث تكرار المضمضة والاستنشاق وغسل الوجه واليدين ومسح الرأس وغسل القدمين .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين »[1] .

فهل هناك عناية بالجسم أشد من أن تجعل الإرشادات الصحية والطب الوقائي قرآنا يتلى في المحاريب ، وعبادة يتقرب بها إلى الله .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو المثل الأعلى لشخصية المسلم ، أنظف الناس ثوبا وأطيبهم ريحا ، وكان يعنى بشعره عناية فائقة فيرجله ويدهنه حتى كان يرى وميض المسك في مفارقه ، ويوصي بنظافة الثوب والبدن ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ؟ فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »[2]

« علم »

وأما العلم فأول واجبات الشخصية المسلمة بعد حاجات الجسد ، لأن كل فضل يتفرع عنه

(١) رواه مسلم وغيره

(٢) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة .

(١) سورة المائدة الآية ٦ .

(٢) رواه مسلم والترمذي . وبطر الحق : دفنه ورده . وغمط الناس هو احتقارهم . . .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ومن هنا افتتح كتابنا الكريم بالدعوة إليه فقال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » (١) .

كما أقسم بأداة العلم تنبيها على شرف العلم فقال : « ن والقلم وما يسطرون » (٢) ويهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بنشر العلم ، فيجعل فداء الأسرى المتعلمين يوم بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، ويهدد الرسول الكريم صلوات الله عليه قوما نالوا من العلم حظا ، ولهم جيران جفاة من أهل البادية لا حظ لهم من التعليم يهددهم إن لم يعلموهم ، ويهدد الجاهلين إن لم يطلبوا العلم .

فيخطب يوما مشنيا على طوائف من المسلمين خيرا ثم يقول :

« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ، أو لأعاجلنهم العقوبة (٣) وهكذا يسبق الإسلام أمم العالم جميعا إلى محو الأمية الفكرية فضلا عن الأمية الحطية التى تتفاخر الأمم بمحوها .

يا قوم : رسول كريم لم يترك له الأعداء فرصة للراحة والاستقرار يهدد بإعلان الحرب على المتقاعدين عن العلم والتعليم كما سمعنا . ويجعل العلم طريقا للجنة ضم الصلاة والزكاة ، ومجالس العلم محلا لتنزل البركة والرحمة . فيقول صلى الله عليه وسلم : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » (١) .

ويعتبر من النماذج الإنسانية الكريمة التى تتعلق بها النفوس العالية رجلا آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . (٢)

ويجعل نشر العلم معينا للخير لا ينضب ،

(١) العلق الآية ١ ، ٢ . (٢) القلم الآية .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير — عن بكير ابن معروف عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه عن جده .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه البخارى ومسلم . والمراد بالحسد هنا الغبطة . وهى تمنى مثل ما للغير .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا يزال يمد صاحبه بسيل من الحسنات فى حياته وبعد مماته فيقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقه جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »(١) .

ويقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »(٢) .

من كل ما تقدم نرى عناية الإسلام بالعلم والتعليم واضحة جلية ونرى غضب الرسول على الجاهلين المنصرفين عن العلم مقترنا بغضبه على العالمين المنصرفين عن التعليم ، فلا يحق لمسلم بعد هذا أن يقعد عن العلم والتعليم . ذلك أن العلم إن طلبه غير المسلمين لدنياهم فقط فنحن نطلبه لديننا ودنيانا ، نطلبه لنتذلل به هذه الحياة ، ولندخر ثوابه للبيات أيا كان هذا العلم من تفسير وحديث وفقه وتوحيد وهندسة وصيدلة وطب ، فالإسلام يحث على طلب العلم النافع بجميع صنوفه وأشكاله فقط يجعل العلوم الدينية أفضل من غيرها ، ومقدمة عليها وفرضا على كل مسلم ومسلمة بجانب ما يعلم من علوم الدنيا .

فلا يقبل من مسلم تخصص فى الطب مثلا أن يجهل دينه محتجا بأنه متخصص فى فنه . فالمسلم مسلم قبل أن يكون طبيبا ، ومسلم قبل أن يكون مهندسا ، ومسلم بعد أن يكون طبيبا ومهندسا عندما يلتقى ربه ويخلف دنياه ومهنته ، وما عليك أخى المسلم وقد تخصصت فى فن من الفنون وعلم من العلوم أن تخصص من يومك ساعة تتعرف فيها لدينك ، وتكمل بها شخصيتك المسلمة فتسعد مرتين مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة .

وقديما كان الأزهر جامعة الإسلام الأولى يتسع صدره لجميع العلوم والفنون ، وكان أساطين العلوم المختلفة من طب ورياضة وجبر وغير ذلك .

كانوا قبل ذلك ومعه فقهاء ومحدثين ، فالشيخ ابن سينا أنبه علماء عصره فى الطب هو الشيخ ابن سينا ، صاحب الإشارات والتنبيهات . والغزالى الفيلسوف هو الغزالى الفقيه الصوفى . ونأمل فى يومنا هذا وقد عادت إلى رحاب الأزهر ألوان المعارف المختلفة من طب وهندسة وغير ذلك . لتدرس بجانب التفسير والحديث والفقه والتوحيد .

وبذلك يكمل الأزهر كجامعة ، أقول نأمل أن نجد فى القريب إن شاء الله بجميع دور العلم فى العالم الإسلامى علوم الدين تدرس بجانب علوم الدنيا لتثقف العقل وتهذب الروح معا ، ولنحصل على الشخصية المسلمة المثقفة المتدينة ، وليكثر فينا أمثال ابن سينا والغزالى ، والفخر الرازى .

الحسينى أبو فرحة

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رأي جديد في أشعار المديح

للأستاذ محمد صلاح الدين فضل

١ — في هذه الآونة من تاريخنا الحديث تتشوف إلى ارتياد آفاق عذراء في مجال الأدب العربي نحقق فيها رسالة أمتنا ... ونثبت وجود جيلنا ... ونخطط ملامح غدنا وهذه غايات نبيلة حقيقة بالعمل المخلص والجهد الدائب ... ولكن بعض الغيوم التي ينشرها المشككون وغلالات الضباب التي يثيرها المفتونون تحجب عنا نوراً لا نستطيع المضي دون الاستضاءة به ... وتهز قيماً لا يمكننا البناء دون أن نرتكز عليها

والقضية التي سأحاول علاجها بسرعة في هذا المقال تتصل بتهمة أوشكت أن تلصق في الأذهان بوصم بها الأدب العربي القديم في جملته ... وخصوصاً التراث الشعري منه والرد على هذه التهمة ليست محاولة للاعتذار عن تاريخنا الأدبي — ولا تبريراً مفتعلاً لما حدث ... وإنما هو تحليل سريع للعوامل التي كان لها فاعليتها وأثرها فيما ورثناه ... ولما زالت هذه العوامل في عصرنا الحديث أخذنا ننظر إلى نتائجها في الأدب دون تقدير لخطورتها ووعي باطني كامل بأهميتها ...

٢ — هذه التهمة تتلخص في سؤال يقوم في ذهن الدارس للشعر العربي القديم حينما يتناول ديوانا منه فلا يكاد يمضي فيه حتى يجد أن أغلب الموضوعات التي يدور حولها لا تكاد ترتبط بوجدان الشاعر كفرد . ولا بعواطفه كإنسان . ولكنها مشاكل الجماعة وأصداء البيئة ووحي المجتمع . ثم تتركز هذه الأشياء كلها في موضوع واحد استنفد جهد الشعراء القدامى أو كاد ... ألا وهو شعر المديح ...

والسؤال الذي ينشب أظفاره في ذهن الدارس هو : هل كان مدار الشعر العربي القديم هو الاستجداء ؟ ..

هكذا ينشأ السؤال وتلق التهمة . فتثير في النفس ظلالاً من الريب . وقدراً من الفتور في الحماس للأدب القديم . بل تثير بعض الاشمئزاز في قلوب من يزعمون لأنفسهم رقة الحس ... ورهافة المشاعر ... وتعفف الضمير

ثم لا يلبث المعوقون أن يتكئوا على هذه التهمة الشكراء ليشوهوا وجه الشعر العربي . حينما يتهمونه بالذلة والاستخذاء والنفعية .

٣ — ولكي تتسم نظرتنا للأمور بقدر ولو يسير من الجدية والموضوعية ينبغي أن ننزه عن هذه الرقة المزعومة ونعيد النظر في تقديرنا للأمور على ضوء الفهم الواعي العميق لبنية المجتمع القديم والنظم الاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيه . . ثم موقف الشاعر فى هذا المجتمع حتى نرى بعد ذلك ... ما إذا كان شعر المديح عارا نخزى من الحديث عنه . أم هو نتيجة ضرورية لم يكن هناك محيد عنها فى تلك العصور . . ولنرى بعد ذلك مدى ما بذله هماليقة الشعب العربى من جهد فنى مخلص فى تنقية هذا التيار الذى حكمت عليهم الأقدار بخوضه . . والارتفاع به إلى آفاق إنسانية رحيبة ، جاهدوا فيها أنفسهم وعانوا المشقات الجسام فى سبيل الاحتفاظ لأنفسهم بكرامتها ولفنهم بقدره رغم ما يضطرهم إليه المجتمع من زيف وتعسف .

ونبادر إلى تأكيد حقيقة بديهية هى أنه ليس معنى أن يكون لشعر المديح فى العصور السالفة ما يبرره ، بل وما يجعله قدراً لا مفر منه أن يكون له الآن أى حق فى الوجود ، إذ أن هذه المبررات لم يعد لها ظل فى المجتمع الحديث .

٤ — وعند ما نحاول تصور الخيوط التى كان يتكون منها نسيج البنية الاجتماعية فى العصر الجاهلى نجد أن النظام القبلى كان يتحكم فى كل مظاهر الحياة ، ومن أول مقتضيات هذا النظام أنه يقوم على التدرج الهرمى فى تركيبه الإنسانى بحيث يتربع على قمة هذا الهرم رئيس القبيلة أو سيد العشيرة ، وتتمثل فيه روح القبيلة وتتلخص فيه شخصيتها بحيث يصير رمزاً حياتها ، وجماعا لكل ما تعتز به فى النواحى الأدبية . وهذا النظام نجده فوق ذلك قائما على تسلط هذا الزعيم على التوزيع الاقتصادى بما يبيحه لأفراد القبيلة من مرعى ، وما يمنحهم من نصيب فى غنائم الغزوات وثروات الحروب التى كانت تمثل ما يقابل الآن الدخل القومى للدولة الحديثة .

هذان الجانبان فى شخصية الزعيم ، تجسيمه للمثل العليا القبلية ، وتركيز السلطات المهيمنة على الأرزاق فى يديه يجعل الحديث عنه ليس حديثاً عن شخص ... وإنما هو أشبه ما يكون بحديث الشعراء المعاصرين عن المعانى التجريدية من وطنية وإنسانية .

وينبغى أن نتصور أنفسنا فى موقف الشاعر القديم عند ما ينظر حوله فيجد نفسه قد وهب وفرة فى الإحساس وقدرة على التعبير وعمقا فى النفاذ إلى أغوار القلب البشرى ، ولكنه كى يحيا فى هذا المجتمع القبلى ويحصل على حقوقه كإنسان يريد أن يحس بكرامته وقدره لا بد له من أن يلجأ إلى إحدى وسيلتين : إما أن يباشر أعمال السطو والإغارة واحتراف الحرب وإما أن يشارك سليبا هؤلاء الذين تجمعت فى أيديهم ثروات قومه .

وأحلى ما بين الوسيلتين مر . . ولكن لا بد مما ليس منه مفر ! !

هنا يحتدم الصراع فى نفس الفنان الذى تتجاذبه الكبرياء والحاجة ... ثم يكون الحل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مزدوجا من جانبين ... يحاول الشاعر أن يجسد في حديثه عن الفرد أشواق الجماعة في الزعيم المثالي وفي تأكيد القيم التي يعتز بها المجتمع .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة العلا من أين تؤتى المكارم

ومن جانب آخر نرى المجتمع يعترف لهذا الشاعر بحقه في الحصول على عطايا الممدوحين دون تحرج أو لوم ... ونرى الرواة يعتزون بالقصائد التي تدور حول المدح اعتزازهم بغيرها ... ونرى النقاد في العصور المتقدمة والمتأخرة يخططون طرائق هذا الفن دون أي شعور بالغضاضة أو الإثم .

هذا الاعتراف بمشروعية فن المدح يحمل في طياته ما نريد الكشف عنه من أن نظرة الناس إليه في تلك الأيام تشبه نظرتنا اليوم إلى الشعر السياسي الوطني وأن ما كان يقال بين يدي الزعماء والقادة والحكام من مدح لهم حين تتوافر فيه عناصر الإجادة والإتقان يشبه ما يقدم الآن إلى المسابقات الأدبية من أشعار تدور حول الموضوعات التجريدية .

٥ — ثم يختلف نصيب الشعراء من الاحتفاظ لأنفسهم بإبائها وعزتها عند ممارسة هذه الضرورة باختلاف ما وهبوه من قوة الروح ... وصلابة الذات ويقظة الوجدان ... فنجد عاطفة الإعجاب وتقديس المثل العليا هي الغالبة على الفحول الذين برزوا في شعر المديح .

ولدينا نموذج واضح الدلالة على هذه النزعة المثالية التجريدية فيما أثر من شعر المديح الجاهلي . هو شعر زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان .. والقضية التي تبناها هرم بن سنان واستحق عليها تخليد الشاعر العظيم له قضية لا زالت تشغل أعظم المفكرين في العصر الحديث . . ألا وهي قضية السلام التي يقود الفيلسوف المعاصر برتراند رسل المظاهرات من أجلها ..

هنا يبرز ما نقوله من أن المدح ليس إلا تكريما لرمز .. تمجيدا لفكرة إحياء لمثل .. ولنستمع إليه يقول .

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما
تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم

أي بر بالقيم العليا أعظم من هذا البر ... وأي تمجيد لفضيلة من أعز الفضائل وبطولة من أرقى البطولات وأكثرها عودا بالخير على الإنسانية من هذا التمجيد ؟ ! !

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

٦ — ثم يحدث هذا الانقلاب الهائل فى المجتمع العربى بمجىء الإسلام . . وتتعقد الخيوط التى يتكون منها نسيجه . . وتعدد الأصباغ التى يتلون بها رداؤه . . ويتقلب الشاعر العربى فى مختلف عصوره على الجمر حين يتبين أن الفرد الحاكم ما زال يمثل السلطة الروحية . . والنموذج البطولى . . والهيئة التنفيذية للدولة المسلمة . . وأنه إذا كان بوسعه أن يحصل على رزقه دون أن يلجأ إلى أبهاء الخلفاء وقصورهم فإنه سيظل بمنأى من أضواء التاريخ التى كانت تسلط كلها على أصحاب الحكم وأقطاب السياسة . . سيحرم نفسه من الخلود . . وشعره من الخلود إن ترفع على مجالس الخلفاء والحكام . . ثم إن نزوله إلى هذا المعترك يتيح له فرصة التوجيه غير المباشر والقيادة الفكرية الحكيمة لحياتهم السياسية والخلقية.

بقى المدح ضرورة الشاعر الذى يريد أن يطفو فوق سطح الحياة ولا يظل مغموراً يعالج أحزانه وأشجانه دون أن يجد راوياً يعنى بنقل شعره أو متغنياً يتلذذ بسماعه . . وعملية التذوق بالنسبة للفنان تكملة طبيعية للإنتاج فكل شاعر يهمه أن تسير بشعره الركبان . . وهى لا تسير فى أغلب الأحيان إلا إذا أثارت اهتمام الناس والعلماء . . ولم يكن يشيع فى ذلك الوقت إلا ما يتعلق بهؤلاء الذين تربعوا على قمة المجتمع واستقطبت حولهم مشاكله .

كانت مجالس الخلفاء وحلقات الشعر بين أيديهم أشبه ما تكون (باستديوهات) الإذاعة وعمرات الصحافة فى عصرنا الحديث . . الراوى يأخذ مكانة الناشر . . ومن يريد لشعره الذيوع أن يرحل به إلى مركز الأضواء ومقر القيادة . . إلى مجالس الخلفاء . . وهو لا يستطيع أن يلج هذه المجالس إلا إذا حرق بعض البخور فى تمهيد الخليفة وتقديس الفرد . . فى شعر المدح .

أترى أى عبء كان على الشاعر القديم أن يتحمله حتى يسمع الناس شعره ؟ وأى مشقة كان يجدها هذا الشاعر فى تناول موضوع متآكل متعفن هو موضوع المدح . . ؟ لقد كان عذابا ما بعده عذاب . . لكنه قدر . . وأمر محتوم . . منطق المجتمع . . وضرورة الحياة . .

٧ — لم يكد ينجو من هذه اللعنة إلا طائفة من الشعراء الذين وهبوا حياتهم وفنهم لعرائس أو شياطين الغزل . . واتخذوا من عواطفهم ولواعجهم مادة لشعر حى متجدد نابع من صميم وجداناتهم ومعبر عن تجارب حقيقية ذاعت وشاعت وعرفوا بها فى الأوساط الأدبية فضمنت لهم خلود الاسم . . ودوران الشعر على الألسن فلم تكن بهم حاجة إلى المديح من أمثال جميل بن معمر وقيس بن الملوح ومن كان على شاكلتهم . .

ولسنا بصدد تقصى جوانب البحث فى هذه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التفصيلات لأننا نريد أن نقف وقفة متأملة فى قلب المشكلة لدى الشعراء الذين عانوا أزمة الإبداع تحت وطأة الانسياق لهذه الضرورات التى ألمحنا إليها .

وسنختار منهم نموذجا يكاد يكون فذا فى بابه .. هو أبو عبادة البحترى .. وسنختار له بضعة أبيات من قصيدة عاتبة وجهها إلى الفتح بن خاقان نشم فيها رائحة الصراع الذى كان يحتدم فى نفس الفنان الأصيل بين اعتزازه بشخصه وشعره وخضوعه لمقتضيات العصر من تورط فى أشعار المديح .. وتمجيد للممدوحين يقول البحترى :

عذيرى من الأيام ونقن مشربى
ولقينى محسا من الطير أشأما
وأكسبنى سخط امرئ بت موهنا
أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما

إلى هنا وهو معتذر عادى لا يزيد عن غيره من الشعراء الذين أذابوا بدموعهم قلوب ممدوحيهم أو قسوة هذه القلوب حتى راحوا يسكبون فيها الحنان العذب الجميل .. ولكنه يقول بعد ذلك .

أعيذك أن أخشاك من غير حادث
تبين أو جرم إليك تقدما
ألست الموالى فيك غر قصائد
هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء كأن الروض منه منورا
ضحى وكأن الوشى فيه مسهما

فنجده يضرب على وتر حساس .. ويلمس زاوية تثير الشجن عندما يستعيذ صاحبه أن ينقلب عليه بلا مبرر ولا مسوغ .. ويروح يناشده الوفاء بحق تلك القصائد الزهراء المنورة التى توجه بها .. ولكنه يبلغ القمة فى التعبير عن أزمة الفنان الذى اتخذ من إنسان مادة أشعاره ثم وجد هذا الإنسان .. هذا الرمز .. يتحول إلى فراغ .. إلى باطل .. إلى زيف .. إنه لا يبكى شخصات فى هذه الحال .. ولكنه يبكى شعره .. يبكى نفسه .. فى كبرياء عنيد واعتزاز أصيل .. وفورة عارمة من فورات الاعتزاز .. فيقول:

ولو أننى وقرت شعرى وقاره
وأجللت مدحى فيك أن يتهضما
لأكبرت أن أومى إليك بإصبع
تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذى يؤتى به الدهر هينا
علىّ ولو كان الحمام المقدما

هذه الأبيات الثلاثة فيما أرى كفيلة بأن تود لشاعر المدح العربى اعتباره فى نظر النقد الحديث .. وتقفنا على حقيقة إحساس هؤلاء الفنانين المعذبين عندما يصوغون من ذوب مشاعرهم تماثيل يجسمون فيها مثلا عليا يريدون لها السيادة ثم .. تنهار هذه التماثيل عندما تهب عليها عاصفة بشرية حمقاء .. ويتبين أولئك الفنانون فجيعتهم فى آمالهم .. فلا تكون

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكارثة فى غرض ضاع .. أو نفع ذهب ولكنها فى نموذج تحطم .. فى عمل .. فنى فقد معناه .. تجوف .. ومن هنا يأخذ شعر المديح مغزى آخر .. وقيمة جديدة يساعدنا فى الكشف عنها شعر العتاب ..

ولا نريد أن نعرض هنا لشاعر آخر بلغ الذروة فى اعتداده بنفسه أمام ممدوحيه ووقوفه منهم موقف الند للند .. ومخاطبتهم كأنهم أحباب أوعشاق له ولفنه .. ثم الإدلال البالغ عليهم والاعتزاز الشديد فى مواجهتهم والعنف اللاذع فى تأنيبهم لدى الاعتذار .. وتقريعهم عند الفرقة .. ألا وهو المتنبى .. لا نريد أن نعرض لذلك لأنه يطول .. ولكننا نلمح إليه لندل هؤلاء الذين يأبون إلا أن يتهموا الشعراء العرب بضعف الشخصية وخفوت الأنغام الذاتية .. وهوان النفس فى معرض المديح .. على أن الأرواح القوية لا تعرف الخنوع .. وهى وإن اضطرت إلى مشايعة العرف ومسايرة الضرورة لا يفوتها أن تنتقم لكبريائها إذا جرحت .. ولفنها إذا امتهن .. ولكرامتها إذا ديست.

٨ — وبعد .. فلعل فى الكلمات القصيرة السابقة ما يشير إلى ضرورة إعادة النظر فى الأحكام السريعة التى نتبرع بها معرضين تراثنا للإهمال .. وذخيرتنا للسخرية .. وأعلام أدبنا للجحود .. وضرورة فهم الأدب فى ظل الحياة التى عبر عنها .. وخضع لمقتضياتها ..

وقد اتضح مما سبق أن شعر المديح كان متنفساً طبيعياً .. وطريقاً مشروعاً فى المجتمع العربى القديم .. بحكم بنائه السياسى والاقتصادى والحضارى بصفة عامة وأنه قام بدور خطير فى إحياء المثل العليا من جانب وضمان حياة إنسانية رغيدة للشعراء من جانب آخر .

وبقى جانب آخر وضىء فى شعر المديح آثرنا أن نختم به هذه الكلمات وهو ذلك المديح العاطر الذى توجه به عبقرة الشعراء إلى صاحب أسمى الرسالات الإنسانية ومعلم البشرية — محمد صلى الله عليه وسلم — ولا شك أن القيم الروحية الجميلة التى أكدها هؤلاء الشعراء .. والغاية النبيلة التى قصدوا إليها من مدح الرسول لما يرتقى بهذه الأشعار — إذا جاد أداؤها — إلى سماء الشعر الصافى الخالد .. ولعل شوقى الآن قد تقاضى مهر عرائسه عندما قال :

لى فى مديحك يا رسول عرائس
تيمن فيك وشاقهن جلاء
من الحسان فإن أردت تكرما
فمهورهن شفاعة حسناء

محمد صبحى الدين فضل
معيد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بمناسبة الحملة الدولية ضد الجوع

عدالة التوزيع

للأستاذ فتحي عثمان

كتب المقريزي في القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» كتاباً عن المجاعات في مصر أسماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) له منزلته الفريدة في الفكر العربي والإسلامي، بعد تلك الفصول التي ضمنها أستاذه ابن خلدون في مقدمته دراسات اقتصادية اجتماعية طيبة ...

وقد كشف الكاتب في مقدمة كتابه عن ظروف مصر السيئة وأزمتها الخانقة التي كانت تجتازها في ذلك الوقت:

«... لما طال أمد هذا البلاء المبين، وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المبين ظن كثير أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر في زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها، ولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها! إنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون .. ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد، لا إنه كما مر من (الغلوات) وانقضى من السنوات المهلكات. فعزمت على ذكر الأسباب التي نشأ منها هذا الأمر الفظيع، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع، وأختم القول بذكر ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء، مع الإلمام بطرف من أسعار هذا الزمن وإيراد نبذ مما غبر من الغلاء والمحن ... إذ الأمور كلها: قلها وجلها، إذا عرفت أسبابها، سهل على الخبير صلاحها» ...

وكان للمقريزي إشارة بارعة في ارتباط مستوى الإنتاج بظروف التوزيع إذ يقول:

«فلما وهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم، وتمزقوا كل ممزق، وجلوا عن أوطانهم، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها، لقلة ما يزرع بها، وخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم، وعلى من بقي منهم» ...

«لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين إلى ما ذكرنا، وبلغت قيمة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإردب من القمح المحتاج إلى بذره ما تقدم ذكره ، وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره ، وعظمت نكاية الولاة والعمال ، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح ، وكثرت المغارم فى عمل الجسور وغيرها . منعت الأرض زكاتها ولم تؤت ما عهد من أكلها ... استمر السعر مرتفعاً لا يكاد يرجى انحطاطه ، فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة ، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ، فمات أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ، وعجز الكثير من أرباب الأراضى عن زراعتها لفساد البذر وقلة المزارعين ، وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

إن عدالة التوزيع تؤثر على الكفاءة الإنتاجية أكبر تأثير ...

نحن نشهد فى زماننا تغيراً كاملا فى النظم الاجتماعية وطرق المعيشة التى كانت سائدة فى أول هذا القرن ، فنحن نخرج من عصر اجتماعى إلى آخر . وقد حاول جوليان هكسلى أن يحدد خصائص هاتين الفترتين من عصرنا فسمى العصر المنصرم : بعصر الرجل الاقتصادى ، وأطلق على العصر الجديد : عصر الرجل الاجتماعى . والواقع أن أوضح مظهر للتباين الصارخ بين هذين العالمين ـ وقد اشتملتهما كلهما حياة جيل واحد ـ هو انتقال مركز الاهتمام . ففيما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المدنية الغربية بما فيها من تقدم اقتصادى عظيم لا هم لها إلا التحكم بطرائقها الفنية فى قوى الطبيعة ، وبينما كانت منهمكة ذلك الانهماك فى مشكلات الاستغلال الاقتصادى وحيازة الثروة ، كان الإنسان بمشاكله مهملا إهمالا يكاد يكون تاما .

على أن ما رأيناه فى عالم ما بعد الحرب فى كل مكان سواء فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى هو تركيز الاهتمام فى الإنسان بصفته البيولوجية والبشرية كوحدة متماسكة ، وأصبحت لمشاكل الإنسان الأولوية على المشاكل الاقتصادية . ولا يعنى ذلك أن المسائل الاقتصادية ستقل أهميتها فى العصر الاجتماعى إلى درجة ثانوية ، بل يعنى أنها ستوجه لصالح البشرية ...

وكان من مظاهر هذه الروح الجديدة مؤتمر التغذية التى دعت إليه الأمم المتحدة فى هوت سبرنجز Hot Springs حيث قام خبراء ٤٤ دولة فاعترفوا فى صراحة بأحوال التغذية فى بلادهم ، ورسموا الخطوات الضرورية لسد حاجتها ، واقترحوا بأن يقوموا بإزالة أو ـ على الأقل ـ تخفيف البقع السوداء التى تمثل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مراكز الجوع وسوء التغذية على الخريطة الديموجرافية ... والواقع أن المشكلة ليست مسألة إنتاج اطلاقا ، بل بالحرى مسألة توزيع وقد ذكر فرانسك بودرو أننا كنا أكثر توفيقا فى إنتاج الطعام مما كنا فى توزيعه ... »

ولقد كان الدين حريصا على عـــدالة التوزيع حرصه على ترقية الإنتاج .

فى حديث رسول الإسلام « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أوليس له خادم فليتخذ خادما ، أوليس له دابة فليتخذ دابة ... » .

وتوفير هذه الاحتياجات للإنسان أساس لتحقيق الكرامة الإنسانية . . .

وهى التى تقررها وتقدسها نصوص القرآن « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » .

كتب الإمام ابن حـزم فى القرن الخامس الهجرى .

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم :

بما يأكلون : من القوت الذى لابد منه .

ومن اللباس : للشتاء والصيف بمثل ذلك .

ومسكن : يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

ولقد سبق أن علقت على هذا النص فى كتابى (آراء تقدمية من تراث الفكر الإسلامى) :

« لقد ألزم ابن حزم الدولة أن ترعى الحقوق الاجتماعية للأفراد ... وابن حزم يحدد الحد الأدنى للمستوى الاجتماعى ، فليس قيام الأغنياء بالفقراء أن يدفعوا فى أفواههم لقمة عفنة معفرة بالتراب ، لا : إنه الغذاء والكساء والسكن . والغذاء : هو القوت الذى لابد منه ، ولعلماء التغذية وحدهم أن يفسروا هذا النص على أساس ما يوجبه العلم للمرء من سعر حرارى وقيمة غذائية وتوفر البروتين والدهون والكربوايدرات والمعادن والفيتامينات .

واللباس : كلمـــة شاملة تشمل الملابس الداخلية والخارجية ، وملابس البيت ، والشارع . والمسكن : يجب أن يكون متينا قويما ، لا تعبث به الريح ولا تنفذ خلال ثغراته ذرات الرمال والحصى ولا تقتحمه العيون » !!

وتحقيق هذا المستوى لكل فرد يتطلب ترقية الإنتاج ، كما أن ترقية الإنتاج تستلزم كفاءة الأداة البشرية بتوفير احتياجاتها

وقد يكون تنظيم النسل من الضوابط الضرورية لعدالة التوزيع ...

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقديما أنذر الاقتصادى الانجليزى توماس روبرت مالتس فى أواخر القرن الثامن عشر بخطر زيادة السكان على الحد الأقصى لإمكانيات العالم فى التوسع الزراعى والغذائى . على أن زيادة السكان ليست عاملا مستقلا منفصلا عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وفى السنوات القلائل التى أعقبت نشر آراء مالتس كان الظاهر أن زيادة السكان فى العالم تؤيد تنبؤاته ، ولكن قبل نهاية القرن الماضى قلت سرعة تلك الزيادة . ويذكر خبير التغذية جوزويه دى كاسترو فى كتابه (جغرافية الجوع) :

« يختلف أثر الجوع المزمن فى الحاسة الجنسية اختلافا بينا على أثر التضور الحاد . فمن المعروف أن التضور يقلل الرغبة الجنسية بينما يبدو أن الجماعات التى تقاسى النقص المزمن فى التغذية من جهة أخرى تزداد عندهم الرغبة الجنسية ، فمن الواضح أنهم أكثر إنسالا ممن هم أحسن حالا . وهذه الزيادة فى القدرة على الإنسال بين الجماعات التى تتعرض للتضور المزمن تحدث عن طريق عملية معقدة تنطوى على عوامل فسيولوجية ونفسية معا . والأثر النفسى للجوع المزمن هو أن يكسب غريزة الجنس من الأهمية ما تعوض به عاطفيا فقدان شهية الطعام ، ومن المسلم به اجتماعا أن الرغبة الجنسية فى الظروف العادية تنافس الرغبة فى الطعام ، فإذا ضعفت إحداهما قويت الأخرى . فإذا نشأ عن الجوع - ولا سيما الجوع الناجم عن نقص البروتينات وبعض الفيتامينات انعدام الشهية انعداما مزمنا وانعدم الاهتمام بالطعام ، سيطرت على المرء الرغبة الجنسية . والشخص الذى يتضور تضوراً مزمنا والذى ضعفت شهيته للطعام وأصبح يكفيها أقل قدر منه ، يتوقف عن التفكير فى غرائزه الغذائية التى أصابها الوهن . وكل ما يبدو عليه من النفاط الذى يهمه بيولوجيا ويرضيه نفسيا يتجه إلى الغريزة الجنسية . وعلى هذا فإن حاجة أولية تقوى حتى تعوض عن سيطرة الأخرى ، وما تبديه بعض المجتمعات أو الطبقات الاجتماعية التى تعيش فى حالة من نقص التغذية المزمن من انغماس فى الشهوات يمكن تفسيره على ضوء عملية التعويض المذكورة . على أن كثرة النسل بينهم ترجع كذلك إلى مظهر فسيولوجى هام من مظاهر الجوع ، وقد لاحظ رعاة الماشية منذ أمد بعيد أن الحيوانات التى تسمن أكثر مما يجب قد تصاب بالعقم ، وأن الإقلال من وجبات طعامها قد يعيد إليها خصوبتها . وتوجد اليوم إحصاءات عن تجارب أجريت ومشاهدات توضح العلاقة بين الطعام والخصوبة ، وهى تبين الطريقة التى يعمل بها النقص الغذائى الجزئى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على زيادة النسل . والافتقار إلى البروتين وما ينطوى عليه من نقص فى بعض الأحماض الأمينية الهامة يزيد الخصوبة فى الحيوانات زيادة ملحوظة ، كما أثبتته تجارب الدكتور سالونيكر على مجموعات من الفئران أخضعها لأنواع من الغذاء تتفاوت فيها مقادير البروتين ثم درس أرقام أنسالها فى مدى ستة أجيال ، وقد لاحظ مثلا أن ذكور الفئران عندما تناولت طعاما لا يحوى من البروتين سوى ١٠ ٪ من سعراته الكلية أصيب ٥ ٪ منها بالعقم ، وعندما زيدت نسبة البروتين إلى ١٨ ، ٢٢ ٪ ازدادت نسبة العقم إلى ٢٢ ، ٤٠ ٪ على التوالى ... !! »

وعلى ذلك يخرج دى كاسترو بأن « ازدحام السكان فى جهات العالم المختلفة ليس هو سبب الجوع ، بل إن الجوع هو سبب ازدحام السكان ! وإذا استحال القضاء على الجوع عن طريق تحديد النسل ، فمن السهل أن نعكس الوضع ونقرر أن التحكم فى نمو السكان يمكن بالقضاء على الجوع ! ... إن زيادة إمكانيات العالم الديموجرافية وتحسينها ورفع المستوى الصحى للإنسان خليق بأن يؤدى إلى زيادة إنتاج الطعام » ! !

على أن نصوص الدين نفسها لا ترفض فكرة تنظيم النسل ... فى الصحيحين : كنا (نعزل) على عهد رسول الله والقرآن ينزل ، وفى صحيح مسلم : كنا (نعزل) على عهد رسول الله فبلغه ذلك فلم ينهنا . وهناك روايات فى الصحيحين والسنن سمع فيها الرسول بأذنه عن (العزل) فلم ينكر ، وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه وداود : نهى رسول الله أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها وهكذا انتقلت السنة النبوية من إقرار المبدأ إلى تنظيمه ! قال ابن القيم : « فهذه الأحاديث صريحة فى جواز العزل ، وقد رويت الرخصة فيه عن عشرة من الصحابة ، وهو مذهب مالك والشافعى وأهل الكوفة وجمهور أهل العلم » !!

وهكذا نجد اتجاه الدين دائما إلى رعاية الإنسان .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

وعدالة التوزيع فى المطالب الاستهلاكية تستدعى عدالة التوزيع فى وسائل الإنتاج .

ولقد ورد حديث لرسول الإسلام أثار جدلا فقهيا كبيراً : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه » ، ووردت روايات بالنهى عن كراء الأرض .

وعلى ذلك لم يجز الإمام ابن حزم إجارة الأرض « ولا تجوز إجارة الأراضى أصلا ، لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شىء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قصيرة ولا طويلة ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنانير ودراهم ولا بشيء أصلا ، فمتى وقع فسخ أبدا » .

وهذا تعزيز للاتجاه القائل بأن تكون الأرض لمن يزرعها ، وأن من لا يزرع يجب ألا يملك أرضاً زراعية .

وخير ما يبرز سلامة هذا الاتجاه كلمات الاقتصادى الانجليزى مل Mill الذى كتب سنة ١٨٤٨م « إن الأسباب التى تبرر ملكية الأرض تكون صحيحة طالما كان مالك الأرض هو مستصلحها ... وليس هناك من نظرية سليمة للملكية الخاصة جرى التفكير فيها يوما وتضمنت القول بأن مالك الأرض ينبغى أن يكون مجرد موظف من النوع الذى يتقاضى مرتبا بلا عمل ، أو ضيف ثقيل على حساب العاملين فيها » !!

ومن هنا لا تكون ترقية الإنتاج على حساب الكرامة الإنسانية إن هذا غدر بالهدف النبيل الذى من أجله يكون الإنتاج ، وعاقبة هذا الغـــدر وخيمة على الإنتاج نفسه فى النهاية !!

والدين لا يرضى بأن يكون الحظ الأوفر من طيبات الأرض أو خيرات الإنتاج وقفاً على طبقة أو دولة ، بينما يشقى سواد المجتمع أو العالم ...

إنه يتطلب أن يسرى تيار الحياة الاجتماعية بغير انقطاع ، وتستمر حركة تداول الثروة ، كما يسير التيـــار الكهربائى بين الموجب والسالب .

« كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

والدين يقيم التعاون الدولى على أساس من التكافؤ والنفع المتبادل .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

وهكذا يضع الدين وقاية من الإقطاع ، ومن الاستعمار .

وهنا تتحقق كفاءة الإنتاج وكرامة الإنسان .

وهنا يكون الدين هدى ورحمة للفرد بكل طاقاته ، والمجموع البشرى بكل أفراده ، حتى لا يستنزف الصراع المتخبط دون طائل : قطرة من دم ، أو نفساً من حياة ، أو ذرة من مادة ... وحتى لا تتبدد الطاقات فى اصطناع الأسوار والمتاريس لحماية البغى وفى دك الأسوار والمتاريس لاسترداد الحق !!

وبعـد :

فقد أوفى الله عهده للإنسان ... بألا يجوع ، وألا يضيع .

لقد أودع فى الكون طاقات هائلة ، ثم أودع فى الإنسان طاقة عملاقة تعالج كل ما فى الكون من طاقات العمل ، وبقى على الإنسان أن ينطلق ...

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ينطلق بكل طاقاته فى التعامل مع الكون بكل طاقاته !

وحسب الدين أن يبصر الإنسان بمعالم الطريق ، وأن يرسم له خطوطاً رئيسية ، وأن يقدم له من هداية الضمير ووقايته ما يؤمن الطاقة من أن تستهلكها الأهواء فى السراديب والمنحنيات والمزالق !!

وعلى الإنسان وحده بعد ذلك يقع عبء العلم والعمل ، عبء التفصيل والتنفيذ .

وليبارك الله كل جهد مبذول من أجل الوصول بالطعام إلى الوفرة ومن أجل التحرر من الجوع .

ومن كان فى يده بذرة أو غصن أو جذر أو فسيلة فليغرسها ... فإن له بذلك أجرا .

ومن كان فى يده شمعة فليضئها على الطريق ... فإن له بذلك أجرا .

مهما ضجت النذر بأن النهـــاية والقيامة على الأبواب .

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها فى السماء

تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها

ويضرب الله الأمثـــال للناس لعلهم يتذكرون » .

فتحى عثمان

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الأزهر والعالم

من علم الأزهر شع نور الإسلام فى بلاد كثيرة ، من إفريقيا ومن آسيا ، وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين . وكانت بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر سبباً لتوثيق علاقة مصر ببلاد كثيرة ، وشعوب كثيرة ، منذ أقدم العصور إلى اليوم . وقد اكتسب المنتسبون إليه احتراما ، وصار رأيه هو الرأى فى كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة ، وصار هو الجامعة الإسلامية فى الشرق والغرب .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التكليف والثواب والعقاب

للأستاذ محمد يوسف الشيخ

كلف الله تعالى عباده وابتلاهم بأمره ونهيه فطلب إليهم من الأعمال ما هو واجب ومستحب ، ونهاهم من الأفعال عما هو إثم ومكروه . وكان فى امتثالهم ما شاء الله سبحانه من ثواب ورحمة ، وفى مخالفتهم ما شاء الله سبحانه من عقاب ونقمة . فهل للمكلف سلطان على ما كلف به وما به يسعد أو يشقى ؟ سؤال استبد بالمفكرين فى شتى العصور ، يحاولون الإجابة عليه بجواب حاسم .

اختلف الباحثون فى هذا شيعا وطوائف : الجبرية ، أهل الاعتزال ، أهل السنة . ذهب الجبرية أصحاب جهم بن صفوان إلى أن الإنسان لا صلة له بعمله سوى كونه محلا له فهو بالجماد أشبه ، ولسنا فى حاجة إلى مناقشة هذا المذهب فإنه يصطدم مع ما نحس به من الاختيار فيما نحن مختارون فيه ، ويتنافى مع التفرقة البديهية بين ما نضطر إليه من الأفعال وما نأتيه طواعية واختيارا .

فليس فى ميزان البحث والجدل سوى مذهبى أهل السنة والاعتزال ، فما هو الحق منهما ؟ أقول لا نزاع بين هؤلاء وهؤلاء فى وقوع التكليف ببعض أفعال العباد كما اتفقوا على أن التكليف إنما يكون بما للمكلف عليه سلطان وله فيه اختيار .

نعم جوز فئة التكليف بما ليس فى وسع المكلف ولا يقع تحت سلطانه ، لكنهم ينفون وقوع ذلك ، وهذا ما يشهد به الكتاب المبين « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

هذان مبدآن لا يختلف فيهما سنى ولا معتزلى : وقوع التكليف ببعض الأفعال . سلطة المكلف على ما كلف به . . إلا أنهم اختلفوا فيما تتحقق به سلطة المكلف على ما كلف به ، فذهب الاعتزال إلى أن مظهر ذلك السلطان إنما هو فى خلق العبد ما كلف به أو الكف عن خلقه . وفى القرآن المبين شواهد تنادى بظاهرها على ذلك : « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، « من يعمل مثقال ذرة خيراً له ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » إلى غير ذلك من عشرات الآيات .

وذهب أهل السنة إلى أن مظهر سلطة العبد على ما كلف به إنما هو كسبه لذلك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العقل المكلف به : ما ذلك الكسب ؟ . قال السيد الشريف فى مواقف العضد :

الكسب تعلق قدرة العبد وإرادته بفعله الاختيارى من غير أن يكون منه تأثير أو مدخل فى وجوده سوى كونه محلا له . ولهم فى الكتاب المبين شواهد تدل على ذلك كقوله تعالى : « وخلق كل شئ فقدره تقديراً » . « والله خلقكم وما تعملون » .

فاذا كان كل شىء مخلوقا له تعالى فليس لقدرة العبد « وقد تعلقت بفعله الاختيارى » خلق وتأثير فى ذلك الفعل بل كل ما هنالك أنه محل لذلك الفعل .

إذن انحصر النزاع بين الفريقين فى أين تكون سلطة المكلف فيما كلف به ، أهى فى خلقه ما كلف به أم كسبه لذلك ؟ وكأنى بالمعتزلة قد استمدوا رأيهم من الواقع المحسوس الذى تظاهره كثير من الشواهد القرآنية ، كما أسلفنا بينما لا سند لأهل السنة ، فيما تشبثوا به إلا مثل قوله تعالى : « وخلق كل شئ » . ولولا ما ورد من أمثال ذلك وحرصهم على المحافظة على ظاهره من العموم الشامل لما خالجهم شك فى خلق العبد لأفعاله الاختيارية ، كما يشهد به الواقع المحسوس فلقد كلفنا الله تعالى آمرا ناهياً ، « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، « ولا تقربوا الزنا » ، « ولا تأكلوا الربا » ، « ولا يغتب بعضكم بعضا » ... خطاب من الله تعالى يطلب فيه إلينا أن نصلى ، ونزكى ، ونصوم ، ونعبده تعالى وأن نكف عن الزنا والربا ، والغيبة ، فماذا نفهم من تلك الأوامر والنواهى الصادرة منه إلينا ، يفهم كل الناس بداهة وبدون تردد أن الله تعالى يطلب إلينا أن توجد الصلاة والزكاة والحج وألا نزنى وألا نأكل الربا ، وألا نغتاب ، والفعل فى خطاب التكليف أمراً ونهياً مضاف إلينا قطعاً . « ومن يفعل ذلك يلق أثاما » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين » ...

لو افترضنا أن ليس هناك سنى ولا معتزلى .

ولم يقرأ الناس خلافا فى أفعال العباد ، وقرأوا هذه الآيات البينات فهل يرتاب أحد فى أن الله تعالى يطلب منا أن يكون منا هذا الفعل وألا يكون منا ذاك الفعل .

لقد كان مذهب الاعتزال أقرب إلى الفطرة وما يشعر به الإنسان من نفسه وما ينطق به كثير من الآيات ، لولا ما غالوا فيه من تقرير سلطة العبد مطلقة ، وأن الله تعالى لا إرادة له فيما نهى ، بل ليس وراء الفعل إلا قدرة العبد وإرادته ، أما قدرته تعالى وأما إرادته جل شأنه فمعزولة عن ذلك الفعل . نعم أراد الله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سبحانه أن يكون وضع الإنسان هكذا، خلقه وخلق فيه القدرة والإرادة، يخلق فعله حسبما أراد، فليس لله تعالى فى فعل العبد سوى خلقه فى العبد القدرة عليه يستقل بإيجاده كما أراد، وقد أمره ببعض تلك الأفعال ونهاه عن بعضها. أما أهل السنة فجعلوا وراء فعل العبد قدرتين وإرادتين: قدرة الله تعالى وعبده، وإرادة العبد وربه، ولم يسندوا الفعل إلى القدرتين لا استقلالا ولا شركة وتعاونا بل أسندوه إلى قدرته تعالى استقلالا حسبما أراد، أما قدرة العبد وإرادته فما شأنهما حينئذ؟ زعموا أن لها مجرد التعلق بالفعل دون إيجاده وهذا ما يسمونه بالكسب كما سلف ... وأقول لا نفهم من تعلق القدرة بالفعل سوى إيجاده بحيث إذا ارتفع الإيجاد ارتفع التعلق، بل وقولك هذه القدرة لم توجد ذلك الفعل، مساو لقولك هذه القدرة لم تتعلق بذلك الفعل، يشهد لهذا قولهم أن تعلق العلم انكشاف، وتعلق القدرة إيجاد، وتعلق الإرادة ترجيح وتخصيص، فنفى الإيجاد مع إثبات التعلق تناقض، وإثبات الشىء ونفيه معا، ثم على ما ذهب إليه أهل السنة كيف تفهم النصوص أنفهم: «أقيموا الصلاة»، فلتتعلق قدرتكم بالصلاة بمجرد تعلق، وكذلك «آتوا الزكاة»، وكذلك «فليصمه»، وهكذا سائر الأوامر. فالمكلف به بمجرد التعلق وبمجرد الكف عن التعلق، أما إيجاد الفعل والكف عنه فمن أثر القدرة القديمة لا يتعلق به التكليف. وكذلك نفهم قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت إلخ..». إن الذين تعلقت قدرتهم بالإيمان والعمل الصالح بمجرد تعلق كانت لهم إلخ وكذلك «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»، وهكذا وهكذا ... ألا ترى أن هذه تصفات تنكرها أساليب اللغة التى حملت إلينا التكاليف وخاطبنا بها الله تعالى فى أمره ونهيه، إنما ينطق الأمر والنهى فيما أوردنا من الأمثلة بأن المكلف به فعل الصلاة والزكاة والحج، والكف عن فعل الزنا والربا والغيبة هذه أفعال مسندة إلى العبد وقدرته وقد نسبها الكتاب المبين إليه «من عمل صالحا فلنفسه»، «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله»؛ فهى للعبد وقدرته خلقا وإيجادا بعد مشيئته تخصيصا واختيارا. فهم قد كبا الاعتزال كبوة شنيعة فى عزل المشيئة القديمة عن بعض هذه الأفعال وهو مصادم لقوله تعالى: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله». ولعلهم اضطروا إلى هذا خوفا من اضطرار العبد عند مشيئته تعالى لفعله، فنفوا تلك المشيئة فراراً من هذا الاضطرار حتى يستقيم التكليف والثواب والعقاب.. كأنى بهم وقد فروا بهذا نسوا عليه تعالى ذلك العلم الفعلى الذى تبرز الأشياء

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

طبقه كالمهندس يترسم فى ذهنه صورة البيت فى شكل ووضع معين ، ثم يبنى طبق ما رسم وحسبما علم، فما علمه الله تعالى لابد كائن حسبما علم. فما زال العبد مضطرا فإذا فر الاعتزال من اضطرار العبد بنفى إرادته تعالى عن فعله فما زال العبد مضطرا لشمول علمه تعالى فإن ما علمه كائن لا محالة .. وأقول الحق إنه تعالى مريد لما كان وما يكون كما أنه تعالى عالم بكل مفهوم واجبا وممكنا ومحالا ، لكن ليس فى علمه وإرادته لفعل العبد منافاة للتكليف والثواب والعقاب ، وليس فيها معذرة للعبد فى إثمه ومعصيته . فإذا أمر الله تعالى عبده بالصلاة مثلا فإذا لم يمتثل وترك الصلاة فقد بان أن الله تعالى علم وأراد تركه الصلاة وعدم امتثاله فهل يصلح هذا العلم وتلك الإرادة معذرة للعبد؟ فيقول: تركت الصلاة لعلمه تعالى وإرادته سبحانه منى تركها .

إن مذهب الاعتزال فى أفعال العباد أقرب إلى الفطرة وما يشعر به الإنسان من نفسه، بل ربما كان أكبر استجابة لمنطق الكتاب المبين فى كثير من آياته : « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » لكنهم كبوا كبوة شنيعة فى عزل المشيئة القديمة عن بعض أفعال العباد العباد وهـــو مصادم لمثل قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، ولعلهم انحرفوا هذا الانحراف الأثيم فراراً من اضطرار العبد إذا ما تدخلت تلك المشيئة القديمة فى أفعاله التكليفية ، لكن فاتهم أن علمه تعالى ذلك العلم الذى سبق جميع الكائنات ، وقد تناول قطعا وإجمالا تلك الأفعال التكليفية وما علمه الله تعالى لا محالة كائن فما زال المكلف من هذه الناحية مضطراً فإذا فر الاعتزال من الاضطرار الإرادى فما زال الاضطرار العلمى جاثما لا مفر منه ، وأقول كما سبق :

الحق أنه تعالى مريد لما كان وما يكون كما أنه عالم بكل مفهوم ، لكن ليس فى علمه وإرادته لفعل المكلف اضطرار ومنافاة للتكليف والثواب والعقاب وليس فى ذلك العلم وتلك الإرادة القديمين معذرة للمكلف فيما اقترفه من الإثم والمعصية فإذا ما أمر الله تعالى عبده بالصلاة مثلا ، فإذا لم يمتثل وترك الصلاة فقد بان أن الله تعالى علم وأراد تركه للصلاة ، فهل يصلح هذا العلم وتلك الإرادة معذرة للعبد ومسقطاً للعقاب والمسئولية واللوم ، فيقول تركت الصلاة لعلمه تعالى وإرادته سبحانه منى تركها .؟ أقول كلا إنما يصح الاعتذار والتعلل بالشىء إذا علمته قبل الإقدام على الفعل أو الترك. لأن ذلك الشىء الذى انتحلته معذرة لك إنما هو العلة التى تبعثك إلى الفعل أو الترك : « فهى المرجح الذى لاح لك ترجيحه لإقدامك على الفعل أو الإحجام عنه حتى أقدمت وأحجمت » ، فما لم تعلم ذلك قبل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إقدامك على الفعل أو الإحجام عنه لا يمكن أن يكون معذرة ومسوغا لإقدامك أو إحجامك . وعلمه تعالى وإرادته منك ترك الصلاة لم يكن معلوما لك قبل الترك حتى فات الوقت ، بل علمت ذلك بعد تحقق الترك وفوات الأداء ، فلا يسوغ أن تقول إذن تركت الصلاة لعلمه وإرادته ذلك الترك مني ، فإنه قبل الترك وفوات الأداء يحتمل أن يعلم الله تعالى ويريد منك الفعل كما يحتمل أن يعلم ويريد الترك فلا شيء من علمه تعالى وإرادته معلوما للمكلف قبل الإقدام أو الإحجام ، فلا يصلح شيء منهما باعثا على الإقدام أو الإحجام بل الباعث عليهما أمور أخرى تقع في دائرة علم المكلف وإرادته من كسل ونحوه ، ومن ثم إذا انكشف لأحد علمه تعالى وإرادته لفعل قبل الإقدام عليه فلا تبعة على ذلك الفعل كما ترى في سفينة الخضر وغلامه ، فقد كشف الله تعالى للخضر أن ذلك الغلام الذي قتله لو بقي حيا لأرهق أبويه طغيانا وكفرا ، فأراد ربك أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما عند ذاك أقدم على قتل ذلك الغلام فكان ذلك طاعة ومثوبة .

إلى هنا وضح استقامة التكليف والثواب والعقاب مع علمه تعالى وإرادته لما كان من طاعة ومعصية فهل يستقيم التكليف والثواب والعقاب مع خلقه تعالى لفعل المكلف طاعة ومعصية كما زعم أهل السنة . قلنا كما سبق أن التكليف يستقيم حيث يكون للمكلف سلطانه على ما كلف به . وإن المكلف به عند أهل السنة إنما هو القصد إلى الفعل وصرف القدرة اليه دون إيجاده بل ذلك له تعالى . ولعل في فروع الشريعة ما يشهد بتحديد المكلف بهذا التحديد وذلك التصوير . فشخصان قتل أحدهما عامدا وقتل الآخر غير عامد فالأول عليه القصاص بالقتل والثاني لا قصاص عليه مع حصول القتل من الأول والثاني فشهد ذلك على أن مناط العقوبة إنما هو العمد والإرادة ، ويؤيده الحديث المشهور له (إذا اشتهر المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال كان حريصا على قتل صاحبه) .

نعم يمكن أن يناقش ذلك بأنه يحتمل أن يكون مناط القصاص الأمرين العمد والفعل ، فإذا انتفى أحدهما سقط القصاص فإنه إذا انتفت العلة أو جزؤها انتفى المعلول جزما . وأما الحديث فليس فيه مجرد القصد والحرص على القتل ، بل كان مع ذلك محاولة القتل من المقتول ألا ترى إلى صدر الحديث (إذا اشتهر المسلمان بسيفهما الخ) وإنما لم يتحقق القتل من المقتول بسبب خارج عن إرادته كضعفه أمام خصمه .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فما زال مذهب أهل السنة فى حاجة إلى ما يؤيده ، فعم لهم من الشبه ما يشبه أن يكون حجة .

قالوا إذا كان العبد خالقا لفعله قصدا واختياراً فالبتة يكون عالما بما يفعل ، فالبديهة تشهد بأنه لا يمكن لفاعل ما أن يختار قاصدا ما ليس له به علم ، ولاشك أن الإنسان يباشر أفعالا فيها من التفاصيل الدقيقة ما يتعذر الإحاطة به إذن ليس للمكلف إلا مجرد القصد إلى الفعل وصرف القدرة إليه دون إيجاده .

أقول وامله من اليسير الهين دحض هذه الشبهة ؛ فإن ما يوجب علم الفاعل بتفاصيل ما فعل ليس مجرد كونه فاعلا وإلا وجب ذلك فى الفاعل إيجابا دون قصد واختيار . وليس الأمر كذلك فإن العلل الموجبة قد تكون جمادا لا يتأتى منها العلم كالنار والإحراق ، بل الذى يوجب علم الفاعل بتفاصيل ما فعل إنما هو مجرد قصده واختياره . وهذا صريح كلامهم انظر إلى مقالتهم السابقة (فالبديهة تشهد بأنه لا يمكن لفاعل ما أن يختار قاصداً ما ليس له به علم الخ). إذن فمجرد القصد إلى فعل واختياره يستوجب علم القاصد بما قصد ، أما إنه فاعل أم لا . فلا دخل له فى ذلك . فدعوى أهل السنة أن للمكلف مجرد القصد وصرف القدرة إلى قصد دون إيجاده يشهد ببطلانها نفس هذه الشبهة السيئة ؛ لأن ذلك القاصد يجهل تفاصيل ما قصد كما جزم بذلك أهل السنة فى شبهتهم . إذن فهذه الشبهة سلاح ذو حدين كما تهدم دعوى الخلق والإيجاد من العبد ، تهدم دعوى مجرد القصد وصرف القدرة دون إيجاد . ومثل تلك الشبه تستبعد من المعركة ولا يجوز التمسك بها .

وأيما كان نتيجة الجدل مع أهل السنة فازوا بمطلبهم أم لم يفوزوا فلمذهبهم هنا مصير محتوم وهو أن المكلف به عندهم مجرد قصد الفعل واختياره وصرف القدرة اليه دون إيجاده ، وهنا نتساءل هل ذلك فى سلطان العبد ومكنته ؟ أذلك من خلق العبد أم الرب ؟ أما الثانى فلا سبيل اليه وإلا فلا معنى للتكليف والثواب والعقاب . لهذا جزم كثير من المحققين من أهل السنة أن الخالق لذلك إنما هو العبد نفسه حتى يستقيم الثواب والعقاب .

لعلك تلمس آخر المطاف اضطرار أهل السنة إلى إسناد شىء ما إلى العبد خلقا وإيجادا وأنه لامفر لهم من التخصيص فى مثل قوله تعالى : « الله خالق كل شىء » حتى يستقيم التكليف والثواب والعقاب ، وقد كانوا حريصين الحرص كله على عمومه وشموله حتى ارتكبوا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى سبيل ذلك من التعسفات ما تأباه ظواهر الأوامر والنواهى وما يأباه كثير من الآى التى تسند الفعل إلى العبد نفسه « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » « من عمل صالحا فلنفسه » إلى غير ذلك من الآى وما يأباه شعور الإنسان من نفسه فالإحساس شاهد صدق على أن الإنسان مصدر أفعاله الاختيارية . وظواهر كثير من الآى ينادى بذلك بل ذلك الكثير آية على التخصيص حتما فى مثل قوله تعالى « الله خالق كل شىء » فالتخصيص ضربة لازب كما سبق واضطر أهل السنة أخيرا إليه ، وإذن فالأجدر بأهل السنة إسناد الأفعال الاختيارية إلى العبد وقدرته وإرادته اختيارا وإيجادا حتى يسايروا بذلك منطق الأوامر والنواهى فى خطاب التكليف وما ينادى به كثير من الآى التى تسند الفعل إلى العبد نفسه مع تلبية شعور الإنسان من نفسه وإحساسه الصادق بأنه مصدر أفعاله الاختيارية (وهذا ما اقتنع به إمام الحرمين من أهل السنة) فقد علمت أنه لابد من التخصيص فى مثل الآية السابقة قطعا حتى يتحقق سلطان المكلف على ما كلف به وعندئذ يستقيم التكليف والثواب والعقاب .

فالحق الذى لا محيص عنه :

أولا : أن التكليف قد تعلق ببعض أفعال العباد .

ثانيا : أن التكليف إنما يكون بما للمكلف عليه سلطان وله فيه اختيار وهذا محل وفاق بين الجميع .

ثالثا : أن المكلف به هو نفس الفعل أو الكف عنه كما نطق بذلك خطاب التكليف أمرا ونهيا ، وشهد بذلك كثير من الآيات التى تسند الفعل إلى العبد .

رابعا : أن ذلك أثر لقدرة العبد وإرادته حتى يتحقق سلطانه على ما كلف به ، بل هذا ما يحس به الإنسان من نفسه ، ويشهد به كثير من الآيات . وحينئذ يستقيم التكليف والثواب والعقاب فى مثل قوله تعالى : « والله خالق كل شىء » فقد علمت أن ذلك ضربة لازب حتى يتحقق سلطان المكلف على ما كلف به ، ويشهد بذلك التخصيص الآيات تسند الفعل إلى العبد نفسه .

خامسا : أنه تعالى عالم مريد بما يقع من المكلف طاعة ومعصية ، ولا مقدرة للعبد فى علمه وإرادته كما سلف .

محمد يوسف الشيخ

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نحو أدب إسلامي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

تتعدد مذاهب الأدب وتياراته المعاصرة، وتتباين دوافعه واتجاهاته تباينا كبيراً، ومن الواضح فى آدابنا العربية اليوم أنها لا تمثل مذهباً فكرياً معيناً، كما أنها لا تمثل مذهباً فنياً بعينه؛ ولقد ساد الأدب العربى فى العصر الجاهلى الطابع الفردى والقبلى، من حيث اصطبغ فى عصر صدر الإسلام وما يليه بصبغة إسلامية لم تكن لتمثل مذهباً مستقلا، فإذا كانت الأفكار والروح الإسلامية قد بدأت تفرض وجودها على الأدب والأدباء، فإن ذلك لم يكن ليدل على ظهور سيادة مذهب إسلامى فى الأدب، فقد بقيت التأثيرات والنزعات الجاهلية واضحة الآثار فى آداب الإسلاميين، وبقيت الصور الجاهلية مستعملة عند أغلب الأدباء، ولم تلبث النزعات القبلية أن فرضت نفسها من جديد على الأدب نفسه، واختفى الطابع الإسلامى الذى كنا نجده فى أمثال شعر حسان، وفى نثر صدر الإسلام، وحل محله طابع عقلى واجتماعى فى أدب العباسيين.

وفى العصر الحديث لم يستطع الأدب أن يمثل تيارا بعينه، ولم ينطق عن فكرة خاصة، إنما تعددت مناحيه الفكرية تعددا جعله لا يمثل شيئاً منها.

وتخلص من ذلك كله إلى اضطراب الأدب العربى فى مفاهيمه ونوازعه ومناحيه اضطرابا شديداً، وإلى أنه لا يمثل لوناً خاصاً ولا طابعاً معيناً، وبخاصة فى عصرنا الراهن الذى نجد فيه فى الأدب تيارات كثيرة متضاربة بعضها قديم وبعضها حديث، وبعضها شرقى وبعضها غربى، وبعضها واقعى وبعضها رومانسى الخ

فإذا ما أردنا أن ننشىء أدباً إسلامياً جديداً فإنه يتعين علينا أن نبدأ من جديد، وأن نطرح كل القيم والمناهج القديمة؛ وأن نعود إلى القرآن الكريم، لنتفهم أصول دعوته، ولتمتلىء نفوسنا بجليل روحانيته، ولنتعمق فى فهمه ودراسته، ولنستلهم عبره وعظاته القدرة على مجابهة الحياة ومعاناة مشكلاتها؛ وعندئذ نستطيع أن نقول إننا نفخر بأننا سنعمل من جديد لتحقيق طابع إسلامى فى أدبنا المعاصر

وهذا الطابع يتمثل التراث الإسلامى كله ويصور وجودنا الإسلامى المعاصر تصويرا كاملا ويعبر عن الأهداف والنزعات الإنسانية التى هى مفهوم ديننا وكتابنا الحكيم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويترجم عن أحلامنا وآمالنا وأهدافنا فى مستقبل أفضل ويستلهم البطولات الإسلامية القديمة والحاضرة ، ويستوحى حضارة شعوب الإسلام ويستهديها إلى غير ذلك من مقومات الطابع الإسلامى فى الأدب .

ولسوف يكون لمثل هذا الطابع صدى عميق فى حياتنا الراهنة ، وفى حياة شعوب الإسلام كافة .. ثم لا ننسى ما لمثل هذا الطابع من قيمة فكرية وتوجيهية عالية ، وما له من غايات إنسانية رفيعة .

وعلى الإجمال فإن النزعة الإسلامية فى الأدب لا بد أن توجد من جديد ، لتنطق بما يجيش فى نفوسنا من آمال وآلام ، ولتصور الواقع العربى الإسلامى تصويرا حقيقيا ، فترسم لنا صورة كبيرة للوطن الإسلامى المنهوب « فلسطين » ، وكفاح الجيل العربى المعاصر من أجل استرداده ، وترسم كذلك صورا أخرى لحركات التحرر ، ولخيانات الخائنين ، ولاسترداد الإنسان العربى لحريته وكرامته وبإرادته ، وللعمل الوطنى الشريف فى سبيل عزة وسيادة الشعوب العربية الإسلامية ، ولآمال هذا الجيل فى تحقيق وحدة كاملة شاملة تربط الإنسان العربى بأخيه الإنسان فى نطاق من التعاون وتبادل الخبرات والثقافات ، ومن الوحدة الاقتصادية والثقافية والعسكرية .

وكما كان هرون الرشيد يقول للسحابة القادمة فى الأفق محملة بالرى والماء : « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » ، سوف يعود المجد الإسلامى العربى مرة أخرى ليستطيع القائد الموجه لدول الإسلام أن يقول ذلك من جديد ، لدول تضمها وحدة الصف ، وتجمع بينها وحدة الهدف .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية القديمة قد عبرت عن مبادئ جديدة ، وصورت كفاح الأجيال العربية المسلمة من أجل حاضرها ومستقبلها ، وترنمت بالحرية والبطولة وإرادة الإنسان وانتصاره ، وبالعزة والمجد لكل الأفراد والجماعات والأمم .. فإن حضارتنا نحن وتاريخنا نحن جديران منا بكل التفات واهتمام ، فيسجلهما أدبنا ، ويصورهما بواقعهما الراهن وبطموحهما الشامخ إلى حيث الكبرياء الوطنى والقومى .

وخاتمة ذلك كله أن أدبنا لا بد أن يعبر عن نزعاتنا الإسلامية الرفيعة ، ولا بد أن يكتسى بطابع إسلامى مميز .

ففى ذلك كله صورة الماضى والحاضر والمستقبل ، وفيه الأمل المنشود الملهم للغد المشرق ، وفيه ربط لاتجاهاتنا الحاضرة بالإسلام الذى يعد أول ثورة تحررية كبرى دعت إلى العدالة والتكافل والإخاء والمساواة والحرية بين الناس كافة ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأدب العربي واتجاهات القومية العربية

للدكتور جمال الدين الرمادي

إذا كان لنا أن نبين اتجاه الأدب العربي في هذه الفترة الماجدة من تاريخنا بعد أن زال هؤلاء الرجعيون الذين كانوا يفرقون كلمتها ويعوقون نهضتها ، ويبددون ثروتها فإن هذا الاتجاه واضح جلي لا يختلف فيه اثنان . وهو الانطلاق نحو الروح العربية الخالصة من تاريخنا أن ننطق بلسان غيرنا ، ونحس بإحساس غيرنا ، وتكون بلادنا مسرحا للأفكار السقيمة التي اصطنعت اصطناعا ، واختلقت اختلاقا .

ولكن ها هي الجمهورية العربية المتحدة قد نفضت عنها اليوم أغلال الماضي ، ووجدت ضالتها المنشودة وأملها المرتقب الذي يعيد الروح إلى الجسد الميت ، ويرد النظام إلى الوضع الفاسد ووجدت بطلها المظفر الذي طالما حلمت به كثيراً في ليلها الطويل ، وقائدها المغوار الذي طالما انتظرته في سجنها المظلم ، فإذا بهذا البطل ينشر دعوة القومية العربية ، وإذا بقيثارها الجارف لا يبقي ولا يذر ، فيتردد صوتها الجهوري من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي . . . !!

ولذلك كان لزاما على الأدب الذي يسيطر على النفوس جميعا ويخاطب أحاسيسهم ووجدانهم أن يعبر عن خوالج نفوسهم ، ومكنونات صدورهم .

لقد وقف العرب منذ القرن الماضي وقفة عجيبة لا يستطيعون أن يتحولوا عنها ، وكانوا بين تيارين مختلفين كل الاختلاف متباينين كل التباين . أحدهما تيار المدنية الغربية والآخر تيار المدنية الشرقية . فأنت إذا قرأت لنفر من الكتاب وجدتهم يلجئون إلى الأساليب العتيقة الدارسة ، والعبارات المجموجة البائدة التي امتلأت بها بعض الكتب القديمة ويزعمون أنهم حفاظ على التراث العربي أمناء على الثقافة العربية وهم لا يستطيعون فهم الثقافة العربية الفهم الصحيح ولا يدركون أغوارها الإدراك السليم .

وإذا قرأت لنفر آخر من الكتاب وجدتهم يسرفون في اعتناقهم للمدنية الغربية ويؤمنون بالثقافة الغربية أكثر مما يؤمن بها الغربيون أنفسهم ، بل إنهم قد يسيئون فهمها كل الإساءة ، ويتصورون الباطل حقا والحق باطلا ، وتخدعهم هذه العبارات الطنانة الرنانة التي ازدهم بها الأدب الغربي ، فإذا هم يتحدثون عن السمبولزم أو الرمزية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهم لا يفهمون من معناها غير أن يتشدقوا بألفاظها تشدقا ومثل هذا عن المذاهب الأخرى مثل البرناسية والرمانتيكية وما إليها .

وإذا بحثنا عن الروح العربية الصميمة الروح العربية المناضلة . الروح العربية التي تصور حياة الشعب وآماله وآلامه ، فإننا قلما نجدها . وإذا وجدناها رأيناها خافتة باهتة بين السطور تكاد يطغى عليها الدهر ويحجبها الظلام .

ولما كنا نعيش اليوم في عهد جديد يقوم على المساواة والاعتزاز بالقومية العربية والارتفاع بالقيم الوطنية فإننا في حاجة الى أدباء يقدرون الأدب العربي كل التقدير ، وفي حاجة إلى أدباء يصورون الريف العربي والأحياء الوطنية ، ويجوسون بين الأزقة والمنعطفات ويسهرون تحت أضواء الشموع والقناديل ، ويصورون نفسيات أهل هذه الأحياء تصويراً صادقا لا زيف فيه ، ولا تنميق به ، ولا تزيد عليه .

نحن في حاجة إلى الأديب العربي الذي يصور أفراح الأمة العربية وأتراحها ، وتقاليدها العريقة المتفشية في الدور والقصور ، في نظام الخطبة والزواج ، والانفصال والطلاق ، وتعدد الزوجات ويجوس بين جوانب الداووين ويعالج شئون الروتين في شتى الوزارات وينتقد التقاليد الجافية المرذولة في المواسم والأعياد وبين الأضرحة والمقابر ، ويخرج من ذلك كله بدلالات نفسية كثيرة يشترشد بها الشعب إلى الصواب .

نحن في حاجة إلى الأديب الذي يصور كفاح العربي الذي استيقظ من سبات عميق ليسير في طريق مشرق مزهر بعد ما أدمى الشوك قدميه فتفصدت منها الدماء القانية .

نحن في حاجة إلى الأديب الذي يصور آمال هذا العربي بعد ما أذله الاستعمار ، واستعبده الطغيان ... ثم صحا من نومته ليعيش حراً عزيزاً في أرض العزة والأحرار ...

وليس من شك في أن الصحافة يقع على عاتقها عبء كبير من هذه المسئوليات الخطيرة ، فكلما كانت صورة صادقة الشعب ومرآة صافية لحياته كانت أكثر توفيقاً ونجاحاً .

وها هي ذي اليوم تسير على هذا الهدى وتحذو هذا الحذو ، بعد أن أرسل السيد الرئيس توجيهاته النيرة للصحافة منذ أكثر من عام ... ثم أشرف عليها الاتحاد الاشتراكي. نحن في حاجة إلى مثل هذا الأديب ... وليس هذا بأمل مستبعد أو حلم .. غريب .. !

دكتور جمال الدين الرمادي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أخلاق الشريعة وآدابها

للأستاذ عباس رشطة

لا مرية فى أن الجدل مفهوم كلى تندرج تحته أنواع شتى ، فالجدل فى قضايا الاجتماع والجدل فى قضايا الأخلاق ، والجدل فى قضايا الفروع الفقهية ، والجدل فى مدلولات العلوم العقلية والشرعية ، والجدل فى الدين ، كل أولئك بعض ما صدقات الجدل وهو مشتق من فطرة الإنسان التى فطر الله عليها الخلق ، وجزء من خلائقه وسجاياه ، لكن الجدل فى سبيل الوصول للحق هو الهدف الأول للمصلحين فى كل عصر وجيل ، فالجدل السياسى مثلا مرتبط بقضايا الإصلاح الفكرى والإصلاح الاجتماعى والخلقى ، نشب بين المتصدرين للإصلاح فى مختلف آفاقه وبين أممهم وكان هذا الجدل مبعث آمال مرة ومصدر آلام مرة أخرى بالقياس إلى ما ينتجه المراء من لوثات أخلاقية واجتماعية تكون من الشعب أو الجماعة أو الطائفة أدوات إفساد وهدم وتصيبه فى مقاتله ، وتلك الظاهرة ماثلة فى شتى الشعوب والأمم لها ويلاتها فى كل قرن ومآثمها فى كل جيل وعصر .

الجدل الدينى أساسه الدعوة إلى الله وتوحيده وتمجيده وما يتصل بذلك من القضايا الأخلاقية المثالية ، هذا النوع من الجدل صاحب العصور كلها وبرز فى ميدان كل أمة وظهر على كل لسان فى مختلف العصور والدهور ، والمراء فى الجدل الذى وقع من قوم نوح وإبراهيم وموسى ماثل فى أذهان المتعصبين لذلك النوع من تلكم الدراسات . فالجدل الدينى مقترناً بالمماراة فيه كان ولا يزال أخطر ما عرف التاريخ البشرى من أطوار هذا الوجود وشتى مراحله وقد أكثر علماء الأخلاق والمشتغلون بالدعوة الدينية من خطر المماراة فى الجدل على الدعاة الدينيين والأساة الأخلاقيين ، وكان ذلك بلسان الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وفى الطليعة منهم رسولنا الأعظم ونبينا الأكرم أخرج أبو داود والنسائى فى صحيحهما أن ابن أبى السائب غشى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم وكان شريكا له فجعل الحاضرون يثنون عليه ويذكرونه فقال رسول الله : أنا أعلمكم به ، قال : صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكى فنعم الشريك كنت لا تدارى ولا تمارى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فالحديث فى صريح لفظه يندد بالمداراة والمماراة عن الرسول بشهادة ابن أبى السائب وقد كان شريكا له بعد شهادة رب السماء بعظيم خلقه وكيف تكون المماراة فى القول خليقة من خلائق الرسول الأعظم وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، أليست شهادة ابن أبى السائب فى حقيقتها تسجيلا لأن المماراة فى القول لوثة أخلاقية ينأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجانبه عنها وأن لنا به أسوة حسنة فترسم مواقع أقدامه والقول الطيب من حكم كلامه والمماراة فى الجدل معول من معاول هدم المجتمع تفسد ماتوثق بين الأفراد والجماعات من رباط وتقطع ما بين ذوى القربى من نياط وهى فيما وراء ذلك تستلزم العقاب فى الآخرة كما تكفل الثواب لمن تدعها وصدف .

أخرج الترمذى وأبو داود أن أنسا رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلا الجنة لمن حسن خلقه » ويبين من هذا الحديث أن المشرع الأعظم يعد بربض الجنة من ترك المراء لأن المراء فى الجدل كذب مصطنع صاغه المارى فى لحن حجته ودوران طريقته فى الإقناع ابتغاء أن يغشى بزبرجه على مجادله ومن هذا النوع مراء الذين جادلوا أنبياءهم ورسلهم وزعماءهم وقادتهم وأهل الرأى فيهم توعدهم الله بالعذاب المقيم لأنهم لم يقصدوا إلى إصلاح فى دعوة دينية أو توجيه إلى صحيح من النظريات الاجتماعية ، وإنما كانوا للحق أعداء وللفضائل السامية التى ظهرت على ألسنة أولئك المصلحين خصماء ؛ منهم كذبة حين يجادلون لأنهم يمارون فى جدلهم والأدل على ذلك حين كذب قوم نوح عليه فاتهموه بما هو منه برىء : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » : أليس هذا الخطاب فى أسلوبه أقذع نوع من أنواع المراء فى الجدل نبت فى رءوس المعاندين فلما قامت عليهم الحجة اتهموا نوحاً بما هو فيهم بل بما هو جزء منهم ، ألا ساء ما يصنعون .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله قال : (كفى بك إثما ألا تزال مخاصما) ، ومعناه فى جلاء أن المراء فى الجدل هو شر أنواع اللدد فى الخصومة لأن المراء يحيل ذلك النوع من الجدل خصومة شخصية من أسوأ مظاهرها أن تقعد بالمصلحين عن متابعة السير فى شعب إصلاحهم وتشل يد المرشدين والقادة فى القضايا الدينية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية عن إزالة العقبات الكأداء التى تعترض سبيلهم إلى أهدافهم : قال الإمام الغزالى فى أخلاقياته من

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إحياء العلوم : (إن الدعاة والمرشدين فى كل زمن تذبت لهم خصوم ملئت صدورهم بالإحن والسخائم إما لأنهم جهلوا حقائق نفوسهم فانطلقوا يضعون العقبات فى طريق أولئك الدعاة إشفاقا منهم على المجتمع أن يصاب بقضاياهم وآثار دعواهم ، وإما لأنهم خافوا أن تعلو شخصيات أولئك القادة والمصلحين فتهتف بهم الألسنة فى الخلوات وتنعقد عليهم الخناصر فى الجلوات وبين هذا وذاك يصبح أولئك الحسدة قوماً مغمورين منسيين لا يتحرك بهم لسان ولا يجرى بهم قلم) من إحياء العلوم مع تصرف فى المبنى واحتفاظ فى المعنى .

ولاشك أن اطراح المراء فى الجدل الذى هو الكذب المصطنع والكذب الملفق والعداء البغيض فضيلة سامية يسمو بها صاحبها إلى الخلق المثالى ؛ لأنه نوع من التأدب بآداب الله بل نوع من أدب الخطاب. فالمرءوس مع رئيسه والعشيرة مع زعمائها بدون المجادلة والمراء يسود ميزان الله فى الأرض ، وهو العدل والقسطاس ويظل قائما فى هذا المجتمع يؤدى لكل نصيبه الذى هو به جدير .

ويلتحق بالمماراة فى الجدل ، الجدل العقيم كمجادلة المعاندين من طوائف السفسطائيين الذين لا يلوون على رأى ولا يعتنقون عقيدة فالجدل مع هؤلاء عقيم الأثر ، ضيق آفاق النظر ، وتلك غيرة رسخت فى النفوس الخبيثة لايقتلعها منها وعظ ولا إرشاد ، ولا يبلغ إليها هدى ولا سداد ، كذبوا رسلهم وقعدوا لهم كل مرصد . ثم حاول هؤلاء الرسل أن يأخذوهم بالحجة ، فما استجاب المعاندون لدعوة ، ولا أصاغوا إلى نداء « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » « ومن يضلل الله فما له من ولى » « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . قال العلامة ابن حزم فى الملل والنحل والأهواء - إن الجدل فى الإنسان قديم الوجود لأن له سلطانا من العقل وداعية من النفس ، وبذلك التفاعل مشى إليه سلطان الغرور والطغيان ، فادعى الألوهية أحيانا ، وحاول أن يفتن كثيراً من خلق الله بهذه الدعوة وقال أنا ربكم الأعلى ، فأصاخ له فريق نهج نهجه ، وأقام على سننه حتى ألهب أديم ظهورهم جميعا سياط الحق فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين : « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » ، « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

أما الجـــدل الكريم فمن الأدب الرفيع كأدب الخطاب وأدب المناظرة الذى أدب الله

(البقية على صفحة ٤٩٣)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المسيحية وتصوف الإسلام ، فإن كلماته فى هذا الباب هى أجمع ما عرض له فى كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منهما احترام السماحة والإنصاف .

وهذه هى عبارته التى تختم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق :

« إذا كان الإنسان إرادة فالله محبة .

« وإذا كان الإنسان عقلا فالله حق .

« وحين يكون الإنسان إرادة تسقط بلا قوة ، ولا ناصر تكون محبة الله هى الخلاص » .

« وحين يكون الإنسان عقلا يضل ويتخبط فى الظلمات فالله هو نور الحق الذى يهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن تنهض بالعقل إلى ذروة الحق الذى يفيض عليها الصفاء والحرية » .

« إن الحب الإلهى يحقق إنقاذه بأن يتنزل إلينا ليرفعنا .

أما الحق الإلهى فإنما يحقق إنقاذه بأن يعيد عقلنا الطبيعى إلى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم إلى صفائه الأول ، وإلى الأفق الذى يدرك فيه أن الحقيقة المطلقة هى كل شىء وأن العوارض دونها ليست بشىء ... » .

عباس محمود العقاد

(بقية المنشور على صفحة ٤٨٨)

به رسله وأنبياءه وخلفاءه فقال للرسول الأعظم : « وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

فأدب الخطاب فى المجادلة هو الهدف الأعلى فى الإقناع بالحجة حتى ينتهى الخصم إلى ما يراد منه فى سلامة صدر وبعد عن سخائم القلوب وأحقاد النفوس . لما إستوثق الأمر فى العراق لعبد الله بن الزبير أرسل إليه أخوه مصعب وفدا يهنئه ويبايعه على الإمارة فلما مثل الوفد بين يدى الأمير قال له : كم كنت أود لو أن لى بكل خمسة منكم رجلا واحدا من أهل الشام ، وكان فى الوفد رجل سليط اللسان مبسوط البيان فقال : على رسلك أيها الأمير علقنا بك وصفقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان فنحن معك على حد قول الأعشى :

علقتها عرضا وعلقت رجلا
غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

وهذا من أدب الخطاب الرفيع الذى يلتحق بالجدل الكريم .

عباس ط

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما يقال عن الإسلام

فهم الإسلام

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم هذا الكتاب يدل على المقصود منه وهو فهم الإسلام وإفهامه للغربيين ، وإنهم كما يرى المؤلف لأحوج إلى فهم هذا الدين منهم إلى فهم الأديان الأخرى ؛ لأن الأسباب التاريخية والسياسية معاقد تضافرت على تحريفه وتشويه صورته فيما نقل إليهم عنه قديما وحديثاً ، ولأنه على خلاف غيره من الديانات الشرقية يشتمل على مزيج من العقائد السماوية والدنيوية لا تمتزج هذا الامتزاج فى تلك الديانات .

والكتاب الذى بين أيدينا منقول إلى الانجليزية من اللغة الفرنسية لمؤلفه فريثجوف شيون Frithjof Schuon الذى تخصص لشرح العقائد الشرقية فى غير هذا الكتاب ويقول الحكيم الهندى (أناندا كومرسواى) إنه واحد من فئة قليلة بين الأوربيين قادر على نقل العقائد الشرقية إلى الغربيين نقلا صحيحاً غير مشوب بالغرض وسوء الفهم

ويقول الشاعر الانجليزى المعاصر (أليوت) بعد اطلاعة على كتابه الأول إنه لم يصادف قبله كتابا مثله فى علم المقارنة بين الديانات الشرقية والغربية .

ونرى من مطالعة هذا الكتاب أن الحكيم الهندى والشاعر الانجليزى على صواب فيما وصفا به المؤلف من القدرة على شرح العقائد الشرقية بغير انحراف مقصود ، ولكننا لا نخاله يشرحها لعامة القراء ولا لطلاب المعلومات المادة « المدرسية » من تلك الشروح ، فإنه يكتب بأسلوب الفيلسوف المتصوف حين يكتب للفلاسفة المتصوفين ولا يهمه إحصاء الآراء والأقوال والوقائع كما يهمه النفاذ منها إلى « روح العقيدة » كما يبحث عنها طلاب الدراسات فيما وراء الطبيعة ، أو طلاب التأمل فى المعلوم للترقى منه إلى « المجهول » الذى يستعان عليه بالنظر المجرد كما يستعان عليه بالمنطق والمعرفة العلمية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وتظهر طريقته فى الشرح من تفرقته المجملة بين نظرة المسيحية ونظرة الإسلام إلى الإنسان .

فالمسيحية عنده تقدم الإرادة على العقل ، والإسلام عنده يقدم العقل على الإرادة .

ويأتى كل فارق جوهرى بعد ذلك من هذا الفارق « الأساسى » بين العقيدتين .

فإرادة الإنسان تسقطه وتحوجه إلى غفران الخطيئة بالفداء .

وعقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التبعة التى تلزمه بين يدى ربه ، ثم يلهمه كيف يلتمس الهداية بالنظر فيما حوله وكيف يلتمسها بمعونة الله .

وعقيدة المسلم والمسيحى فى المعجزات تابعة لهذا الاختلاف بين تقديم الإرادة على العقل وتقديم العقل على الإرادة .

فالمعجزة هى الوسيلة الكبرى لتقرير إرادة الله أمام إرادة الإنسان .

ولكن الاعتماد على العقل كان للعلم بإرادة الله من طريق غير طريق المعجزات ، وإن كان لا يغلق الباب على هذه الطريق .

والمشهور عن المسلم أنه « قدرى » وإن بالغ أبناء الغرب فى الخلط بين إيمان المسلم بالقدر وبين سلب الإرادة وتجريد الإنسان من صفة الحرية .

أما الرأى الأمثل فى « القدرية الإسلامية » فهو أن هذه القدرية هى النتيجة « المعقولة » لإدراك المسلم أنه « غير الإله » ونفوره من فكرة الحلول أو المزج بين الوجود الإنسانى والوجود الإلهى ، ومن لم يكن إلها فليس هو المقدر لمقاديره ، ولا افتراق عنده بين الإيمان بالقدر والإيمان بالقدرة الإلهية وإحدى لوازمها القدرة على العلم بما يكون والقدرة على العلم بما سيعمله الإنسان قبل أن يعلمه ، وقبل أن يعمله .

ومن لوازم تقديم العقل على الإرادة أن تكون معجزة الإسلام هى المعجزة التى تناسب المخلوق الذى يوصف بالحيوان الناطق وهى معجزة الخطاب بالكلم الإلهى البليغ ، وهو القرآن .

ولا بد للقارئ إذا أراد أن يفهم رسالة القرآن أن يذكر أنه كتاب فرائض وكتاب إقناع وكتاب هداية ، وأن الإعجاز فيه لا يرجع إلى فصاحة اللفظ وحده ولا إلى نسق البيان وحده ، ولكنه يرجع إلى إيحاء اللفظ وإيحاء البيان بما يعجز كل كلام « غير إلهى » عن الإيحاء بمثله .

ثم يلخص المؤلف رسالة القرآن من الوجهة الفلسفية بأنها رسالة الإيمان والإسلام والإحسان ، وفيها - مع خطاب العقل بالمعانى الفكرية - مضامين تنطوى فى تلك المعانى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولكن المخاطب بها يفهمها كما ينبغي أن يفهم اللمحات والرموز الخفية ، وهو باب مفتوح للاجتهاد في فهم الحقائق الغيبية على نهج المتصوفة وأصحاب الإشارات والتقاليد .

ومن تصحيحات المؤلف لما يفهم الغربيون عن المناقب « الشخصية » التي اتصف بها النبي عليه السلام أن مصدر الخطأ في هذا الفهم تصورهم للرسول الديني على صورة واحدة هي صورة بوذا والسيد المسيح ، وهي صورة تحيط بها هالة من غير هذا العالم الإنساني لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدنيوية .

لكن « محمداً » عليه السلام لم تكن تحتويه هذه الهالة من غير العالم الإنساني ، لأنه رسول شريعة وصاحب جهاد في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، ومثاله من صورة الرسالة الدينية ، إنما هي صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، مع تفاوت الأفق والمجال .

وللمؤلف تفسير « فلسفي » لعظمة النبي عليه السلام كما توحي بها العقيدة الإسلامية .

فهو صلوات الله عليه مثال « الإنسان الكامل » الذي لا مرتقى بعده لدرجات الكمال في بني الإنسان ، إلا أنه ليس بمثال الإنسان الكامل وحسب على هذا الاعتبار ، بل هو كذلك مثال الإنسان القديم أو الإنسان الخالد على صورة الله .

فإذا كان كمال الإنسان جامعا له بين الفضائل السماوية والفضائل الأرضية فالقدم أو الخلود مناط الفضائل منذ الأزل قبل أن تنفصل السماء والأرض وقبل أن تعرف الكائنات فكرة سماوية مقابلة للفكرة الأرضية ، أو فكرة أرضية مقابلة للفكرة السماوية .

وبين هاتين الصورتين : صورة الإنسان الكامل وصورة الإنسان القديم ، يقيم المسلم عظمة نبيه صلوات الله عليه ، ويتخذه مثالا للإنسانية في صميمها على صورة غير الصورة التي يتمثلها الغربيون لبوذا أو للسيد المسيح .

يقول المؤلف بعد سطور في مفتتح كلامه عن النبي : « إن الذي يطلع اطلاعا وافيا على سيرة محمد من مصادرها المأثورة ترتفع أمامه ثلاثة عناصر قد تتلخص في هذه الصفات الثلاث : التقوى والجهاد والمروءة ، ومفهوم تقواه أنها حب الله بكل قلبه شعورا منه بما يعلو على الوجود وبالصدق المحض والإخلاص السليم ، وهي صفة عامة مفروضة في جميع الرسل الإلهيين ، تذكر بصفة خاصة لأنها في الإسلام عنوان مقدم على الجو الروحاني فيه .

« وهنالك غزوات جهاده ، وهي إذا عزلناها عن صورة العنف في الحروب تدل على عظمة روحانية فوق ذرع الإنسانية ، ثم العلاقات الزوجية وهي منفذ مقرر إلى الحياة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأرضية الاجتماعيـــة ولا نريد أن نقول الدنيوية العالمية . . . ولم تخل هذه العلاقات فى ناحيتها السياسية التى نريد بها معناها المقدس عند النظر إلى إقامة مدينة الله على الأرض وقد برزت فى حياة محمد دلالات كافية على العفة والنزاهة بخاصة فى أيام الشباب ، حين يشتد جماح الشهوات » .

ثم يقول : « ويصح أن يقال إن روح النبي قد جبلت من النبل والصفاء ، وأولها يجمع القوة والكرم ، وثانيها يجمع القناعة والاستقامة ، وقد كان مسلك النبى فى طعامه ومنامه مسلك القانع القويم ، ومسلكه مع النساء مسلك الكرم والمروءة » .

والكتاب يدور على فصول أربعة بعد المقدمة ، أولها عن الإسلام ، وثانيها عن القرآن ، وثالثها عن النبي ، ورابعها عن الطريق ، وهو عنوان شامل لكلامه عن التصوف الإسلامى مع المقارنة بينه وبين تصوف الهنود وتصوف المسيحيين

ويحسب أن القارئ قد لمح معنا أن مؤلف الكتاب ينتهى بالفصل الأخير عن التصوف إلى مجاله الواسع الذى ينطلق فيه قلمه على مدى عنانه ولا تبتعد كثيراً عن فهمه على طريقته فى فهم الإسلام إذا قلنا إنه يتكلم فى التصوف الإسلامى كما يتكلم فى مذهب يؤيده ويجنح إليه ، وإنه إن - لم يكن مؤيداً له جانحاً إليه - فليس له تأييد لغيره من المذاهب أكبر من هذا التأييد .

فالتصوف الذى يشرحه المؤلف فى فصله الأخير هو التصوف الذى يتميز بالنظر إلى الحياة الإنسانية نظرة « الإيجاب » والثبوت ولا يطمح بالعابد المتصوف إلى غاية نهايتها الفناء وفقدان وهى الوجود .

والله - جل وعلا - هو فى هذا التصوف حقيقه الحقائق التى يبطل ما عداها بطلان الوهم الزائل ، ولكن البطلان هنا غير الباطل الزائف الذى ينتهى إلى نقيض الملكوت الإلهى فى ملكه الشيطان .

فالكائنات الموجودة فى عالم المادة تزول وتتولد من معدن الزوال ، ولكنها ليست بدنس ولا زيف ولا هى بالبطلان الممسوخ فى أصل التكوين ؛ لأن العابد المتصوف ينبغى أن يرى فيها معرضاً لجمال الله وقدرة الله ولمشيئة الله ، وينبغى أن تكون عنده صورة لتجلى الخالق حيث لا مطمع للمخلوق إلى ما فوقها من آيات الجلال والجمال ، فإنما يطمح وراء هذا المطمح من عرف فى كل شىء آية تدل على الواحد الأحـــد الذى لا تدركه الأبصار .

* * *

ولا ينسى الكاتب تفرقته بين الإرادة والعقل حين يعرض للفوارق بين تصوف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المسيحية وتصوف الإسلام ، فإن كلماته فى هذا الباب هى أجمع ما عرض له فى كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منهما احترام السماحة والإنصاف .

وهذه هى عبارته التى تختم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق :

« إذا كان الإنسان إرادة فالله محبة .

« وإذا كان الإنسان عقلا فالله حق .

« وحين يكون الإنسان إرادة تسقط بلا قوة ، ولا ناصر تكون محبة الله هى الخلاص » .

« وحين يكون الإنسان عقلا يضل ويتخبط فى الظلمات فالله هو نور الحق الذى يهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن تنهض بالعقل إلى ذروة الحق الذى يفيض عليها الصفاء والحرية » .

« إن الحب الإلهى يحقق إنقاذه بأن يتنزل إلينا ليرفعنا .

أما الحق الإلهى فإنما يحقق إنقاذه بأن يعيد عقلنا الطبيعى إلى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم إلى صفائه الأول ، وإلى الأفق الذى يدرك فيه أن الحقيقة المطلقة هى كل شىء وأن العوارض دونها ليست بشىء ... » .

عباس محمود العقاد

(بقية المنشور على صفحة ٤٨٨)

به رسله وأنبياءه وخلفاءه فقال للرسول الأعظم : « وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

فأدب الخطاب فى المجادلة هو الهدف الأعلى فى الإقناع بالحجة حتى ينتهى الخصم إلى ما يراد منه فى سلامة صدر وبعد عن سخائم القلوب وأحقاد النفوس . لما إستوثق الأمر فى العراق لعبد الله بن الزبير أرسل إليه أخوه مصعب وفدا يهنئه ويبايعه على الإمارة فلما مثل الوفد بين يدى الأمير قال له : كم كنت أود لو أن لى بكل خمسة منكم رجلا واحدا من أهل الشام ، وكان فى الوفد رجل سليط اللسان مبسوط البيان فقال : على رسلك أيها الأمير علقنا بك وصفقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان فنحن معك على حد قول الأعشى :

علقتها عرضا وعلقت رجلا
غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

وهذا من أدب الخطاب الرفيع الذى يلتحق بالجدل الكريم .

عباس ط

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

عرض وتلخيص : للأستاذ محمد عبد الله السمان

---

١ — الإسلام والمذاهب الأدبية :

للدكتور نجيب الكيلاني

قامت بنشر هذا الكتاب مكتبة النور بطرابلس - ليبيا ، والمؤلف الأديب الطبيب الدكتور نجيب الكيلاني ، المؤلف القصصي الذي استمد معظم قصصه واستوحى أفكارها من بطون التاريخ الإسلامي .

وهذه الدراسة التي تقع في حوالي ١٩٠ صفحة ، يمكن أن تكون إجابة عما إذا كان هناك أدب إسلامي حقيقي متكامل ، نستطيع أن نستخلص منه القواعد الأساسية لما نسميه بالإسلامية .

إن المؤلف يذكر في مقدمته : أنه إذا لم يكن هناك هذا الأدب بصورته الكاملة ، فهناك الدين الإسلامي الذي نستلهم منه هذه القواعد والأصول .

وإذا كان الواضح أن بعض المذاهب الأدبية لم تتحدد مفاهيمها إلا في ضوء ودراسة نماذج سابقة لها - كالكلاسيكية ، والرومانسية مثلا ، إلا أن بعض المذاهب الأدبية الأخرى لم تسبقها نماذج ، وإنما سبقها تحديد فلسفي وفكري ، ثم تلته النماذج الأدبية ، كما حدث في الوجودية التي ابتدأت كفلسفة واستمرت كأدب ، وكذلك الواقعية الاشتراكية التي ارتبطت بالفلسفة الاشتراكية ، أو الماركسية التي سبقتها .

وعلى هذا الأساس يرى المؤلف أنه ليس ثمة خطأ في محاولة التخطيط للإسلامية في الأدب ، وإن لم يكن لدينا النماذج الكاملة المحددة كل التحديد .

أنا لا أظن أن المؤلف قد استطاع أن يقدم دراسة تطبيقية متكاملة على منهجه في مقدمته ، وهو يعرض ويناقش علاقة الدين بالفن ، والخصام بينهما ، وما بين الحرية والالتزام في الأدب ، وأدب الاستماع ، والالتزام في الأدب العالمي ، وصلة الإسلامية بالأدب ، ومشكلة اللغة ، والأدب الإسلامي القديم والحديث ، وأم المذاهب الأدبية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى العالم العربى ، ثم نماذج عديدة فى القصة والمسرح والشعر .

كنت أرجو خلال هذه الدراسة أن يكشف المؤلف الأديب ، عما إذا كان من الممكن أن تنفرد الإسلامية بمذهب أدبى له حدوده وقواعده ومظاهره ومميزاته كسائر المذاهب الأدبية العالمية قديمها وحديثها .

أعتقد أننا نستطيع أن نلتمس للعلم والفن والأدب جوانب من واقع الفكر الإسلامى الخصيب ، ولكن السؤال الذى يطرأ على الأذهان : هل يمكن الوقوف على منهج إسلامى خاص فى هـــذه المجالات كما أمكن للمفكرين المسلمين الأوائل أن يقيموا منهجاً خاصاً فى الفلسفة الإسلامية مثلا ؟ .

ولنا وقفة أخرى مع الأديب المؤلف فى كتابه ، فهو فى خمس وسبعين صفحة قدم لنا نماذج كاملة فى القصة والمسرحية والشعر لأدباء معاصرين : كنجيب محفوظ فى قصة (نصف الدين) ، وتوفيق الحكيم فى قصة (أنا الموت) ، وباكثير ، وهارون هاشم رشيد ، والكيلانى ، وأحمد محرم ، والوكيل وإبراهيم نجا ، وقد كان من الممكن أن يكتفى بالتقاط صور سريعة من هـذه النماذج الكثيرة التى لها ارتباط بدراسته لتوضيح المفاهيم والمضامين الفكرية للأدب الإسلامى دون ما حاجة إلى هذا الإسراف فى الحشو .

إن محاولة الأديب المؤلف لإبراز قيمة أدبية للإسلام تعتبر المحاولة الأولى من نوعها ، وهذا ما يجعلها جديرة بالتقدير .

* * *

٢ — كما تحدث الرسول :

للأستاذ خالد محمد خالد

نشرت هذا الكتاب الجديد للأستاذ خالد دار الكتب الحديثة بعابدين ، ويقع فى ١٨٠ صفحة ، تناول فيه مستنداً إلى أحاديث الرسول ـ صلوات الله عليه ـ النفس الباطنة ، وهى ـ كما يرى ـ القدر الذى يحملنا فى رحلة التفوق والكمال إذا ألهمت تقواها ، وهى أيضا القدر الذى يدحرجنا فى مهاوى التعاسة والضلال إذا ألهمت هواها ، وتحويل النفس الباطنة إلى النفس المطمئنة ، المشعة بالخير ، التواقة إلى الكمال ، هو غاية الدين ، وغاية المرسلين فى تعلية النوع الإنسانى وبعث إرادة الخير فيه ويرى الكاتب الأديب ، أن النفس الباطنة قوتها وريها ، وأن خير ما تغتذى به وتروى لهو الإخلاص ، لأن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجهها .

وتناول المؤلف ثانيا : الفطرة المؤمنة . فالرسول عليه السلام يؤمن أن كل مولود يولد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على الفطرة ، وفى هذه الفطرة تكمن وتتمثل البديهة التى تهدى صاحبها تلقائيا إلى الحق ، وتوجه أحاسيسه ورؤاه نحو مصدر هذا الوجود المعجز العظيم ، وهذه البديهة تولد معنا ، وتنمو معنا .. ولكنها كأى شىء فينا يحتاج نموها إلى رعاية وزاد ، والأنبياء والمرسلون يقدمون إليها زادها ويحولونها إلى بصيرة مضاءة بنور ما فتح الله عليهم من آياته وعطاياه - أى يحولونها إلى فطرة عارفة مؤمنة .

وتناول المؤلف ثالثا : أزمة الإنسان ، فللوجود الإنسانى أزمة ما فى ذلك ريب ، نشأت هـــذه الأزمة معه ، وتطورت ، ولا تزال تصاحبه وتواكبه ، وهى تتناول الوجود الإنسانى كله عند الفلسفة بينما تتناول بعضه عند الدين ؛ لأن الإيمان بالله ، الذى يشكل لدى الفلسفة جزءاً هاما من أزمة الإنسان ، ليس عنـــد الدين والمرسلين إلا مفتاحا للأزمة الإنسانية كلها وعلاجا شافيا منها .

وتحدث المؤلف أخيراً عن فضائل الحياة ، التى تحدث عنها رسول الله أروع حديث ، والحياة عنده - صلوات الله عليه - لا تنفصل عن الأحياء فهى منهم وإليهم .

إن لهذه الحياة قواعدها وفضائلها التى إذا أخذت فرصتها ساعدت البشر على أن يكونوا صالحين ، خيرين ، سعداء وكل محاولة لتزييف هذه الفضائل ، جناية ترتكب لا ضد جيل أو جيلين أو ثلاثة ، بل ضد الحيـــاة فى مداها البعيد .

أما فضائل الحياة التى عناها المؤلف ، فقد عرض منها أمهاتها ، الحب ، التفاؤل ، الرحمة الوفاء ، الأمانة .

الأستاذ خالد فى كتابه هذا يسير على نفس منهجه فى كتبه الأخيرة ، (بين يدى عمر) (وجاء أبو بكر) (كما تحدث القرآن) فهو لا يقدم دراسة منهجية تقوم على الموضوع الواحد كقضية متشعبة الجوانب ، وإنما يقدم لقطات تكشف عن القيم العظيمة ، والمعانى الحية الكبيرة ، ومثل هذا المنهج - وإن كان يكلف جهدا ذهنيا فى تحليل المعانى إلا أنه لا يكلف جهدا فى البحث عن الأفكار وتقييمها ، ولا جهدا فى إيجاد حيثيات القضايا التى تشكلها هذه الأفكار .

إن الأستاذ خالد الذى أثارت مؤلفاته الأولى معارك فكرية ، قد استرخى أخيرا للهدوء الذهنى ، ولست أدرى : أهذا رد فعل كان يجب أن يكون ، ويجب أن يستسلم له أم إن هذا الهدوء بمثابة استراحة طويلة ، ربما يستعد لجولة أخرى ؟ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

٣ — المرأة في [illegible]

للأستاذ عبد الحميد ابراهيم محمد

نشرت هذا الكتاب للمؤلف « الدار القومية للطباعة والنشر » في حوالي ١٢٠ صفحة ، وقدم له الدكتور أحمد الحوفي الأستاذ بكلية دار العلوم الذي تخرج فيها المؤلف .

الموضوع الذي تناوله المؤلف ليس جديداً بالطبع ، وقد كثر الكلام فيه ، وتقدم إلى المكتبة العربية مئات المؤلفات فيه ، ومن يتصدى للكتابة فيه فعليه أن يأتي بجديد ، وإلا كان تكراراً لا حاجة بنا إليه ، فهل أتى المؤلف بجديد في كتابه هذا ؟

الكتاب قسمان : القسم الأول « معطيات الإسلام للمرأة » وفصوله الستة (المعاملة الإسلامية للمرأة ، بيت الطاعة ، تعدد الزوجات ، إرث المرأة وشهادتها ، الرجال قوامون على النساء ، الطلاق) .

والقسم الثاني : انطلاقة المرأة المسلمة في فصل واحد .

هذه الموضوعات المتصلة بالمرأة موضوعات سبق تمحيصها ، والجديد بالنسبة إليها في هذا الكتاب إغراق المؤلف في الاستشهاد بآراء غيره ممن سبقوه ، فنجده في التمهيد للبحث تحت عنوان : « مكانة المرأة في الحضارات والديانات والمجتمعات السابقة على الإسلام » ، لم يسجل إلا آراء الأستاذ العقاد من كتبه : « المرأة في القرآن » ، و « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ، و « الصديقة بنت الصديق » ، وآراء الدكتور الرافعي من كتابه « الإسلام انطلاق لا جمود » ، وآراء الدكتور محمد حسين هيكل من كتابه : « حياة محمد » ، وآراء الدكتور الحوفي من كتابه « الغزل في العصر الجاهلي » . فإذا علمنا أن هذا التمهيد الذي تضمن آراء هؤلاء الكتاب لم يزد إلا قليلا على ثلاث صفحات ، أدركنا إغراق المؤلف في الاستشهاد .

والاستشهاد ليس عيبا ، ما دام للمستشهد من بينها رأي له كيانه في مناقشة الاستشهادات والتعقيب عليها ، وهذا ما لم يكن له وجود إلا في صفحات قليلة من الكتاب .

نحن لا ننكر أن المؤلف أضفى على هذه الموضوعات أسلوبا منطقيا وهو يدحض شبهات حامت حول إنصاف الإسلام للمرأة لا سيما في الفصل الخامس « الرجال قوامون على النساء » ، والقسم الثاني « انطلاقة المرأة المسلمة » .

كان جميلا من المؤلف في خاتمة كتابه ، أن يطالب بأن نمتحن أسباب نشوز المرأة ، فإن كان سلوك زوجها مستفزا غير حامل لها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

على هذا النشوز حكمنا بخطأ المرأة وأعدناها إلى بيت زوجها ، وإن كان حاملا لها بسلوكه على النشوز ، فعلى القانون - إذا أعياه إصلاح الزوجة - أن يحكم بالفراق .

ولكن الذى لا نقره ، مطالبته بجعل الطلاق بين يدى القاضى ، متجاهلا دقة القرآن فى اشتراطه حكمين من أهله وأهلها للحفاظ على الأسرار الزوجية وقدسيتها ، (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) ، ومهما رأينا أن تكون جلسة القاضى سرية ، فلن تتمكن تماما من المحافظة على أسرار الزوجية ، كما لو اعتمدنا على حكمين من أهليهما ، قد يسهمان بسبب قرابتهما للزوجين فى إمكان الصلح أو التفريق بالتى هى أحسن .

* * *

٥ — الحسبة فى الإسلام

الأستاذ إبراهيم دسوقى الشهاوى

أصدرت دار العروبة بالقاهرة هذا الكتاب الجديد للأستاذ الشهاوى ، وهو دراسة عن الحسبة فى فصول عشرة : تعريف الحسبة ، وحكمها ، ومراتبها ، وشروط المحتسب وآدابه ، والولايات فى الإسلام ، ثم عرض المؤلف لنظام الحسبة فى عهد الرسول - صلوات الله عليه - ثم كيف تطورت بتطور الدولة الإسلامية نفسها ، كما تحدث عن نظام الحسبة فى مصر وتطوره التاريخى منذ الفتح الإسلامى حتى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم ختم المؤلف حديثه بعرض سريع لمشاهير المحتسبين ، ومنهم المقريزى ، حيث تولى الحسبة فى عهد البرقوق ملك مصر عام ٨٠١ هـ ، وصاحب عمدة القارى فى شرح البخارى الذى تولى الحسبة بعد اعتزال المقريزى لها

والمؤلف عنى بالدراسة عن الحسبة لأنها - كما ذكر - مبنية على التناصح

والحق أن الدراسة طيبة ، فى مسألة تناساها المسلمون ، ولم يكن لها مكان فى الثقافة الإسلامية ، وهى الآن محتبسة فى أسفار فقهاء المسلمين ، إلا أن المؤلف لم يعرض للحسبة اليوم ، وهل لها مكان فى تشريعات بعض البلاد الإسلامية ؟ وإذا كان لها مكان فى ظل القوانين الغريبة التى تسربت إلى نظم بعض الدول الإسلامية وكنا نود أيضا أن يذكر المؤلف لنا طرفا عن مفهوم الحسبة فى نظر التشريع الغربى ، وبذلك تكون الدراسة متكاملة ، وتنال المكانة اللائقة بها فى المكتبة الإسلامية .

محمد عبد الله السمان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أنباء وآراء

شاعر العروبة والإسلام :

الشاعر أحمد محرم

احتفلت محافظة البحيرة ، ومحافظها الجليل محمد وجيه أباظة بذكرى الشاعر الكبير الخالد أحمد محرم فى دمنهور عاصمة البحيرة . فأقامت لذلك مهرجانا كبيراً فى سينما النصر بدمنهور استمر من ٢٧ إلى ٢٩ جمادى الأولى عام ١٣٨٣ هـ — ١٥ إلى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٣ م .

ثلاثة أيام كاملة عاشتها دمنهور فى أعياد وطنية كبيرة ، وهى تحتفل بذكرى الشاعر الكبير أحمد محرم شاعر الوطنية والثورة عليه رحمة الله (١٨٧٧ — ١٩٤٥)

وقد امتلأت دمنهور بوفود الأدباء من جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة الذين قصدوا إليها بدعوة من المحافظ ، ونزلوا فى ضيافته ، وشاهدوا معالم العمران والثورة فى البحيرة وفى عاصمتها .

فى اليوم الأول من المهرجان افتتحت حفلة الذكرى بآيات من القرآن الكريم ، ثم ألقى كلمة الافتتاح السيد المحافظ ، وأعلن فيها بتبرع المحافظة بجائزة سنوية للشعر مقدارها مائة جنيه يمنحها المجلس الأعلى للآداب والفنون نيابة عن المحافظة لأحد أبناء البحيرة من الشعراء ، وتلاه السكرتير العام للمجلس الأعلى للفنون والآداب السيد الأستاذ يوسف السباعى فنوه بالمهرجان والشاعر وطالب بتكوين الهيئة المحلية للآداب والفنون فى المحافظة ؛ ثم ألقيت قصائد من الشعراء : على باكثير وفضيلة الشيخ إبراهيم بديوى شيخ المعهد الدينى بدمنهور ، والشاعر محمود جبر والشاعر محمد القوفى ؛ وألقيت بحوث عن الوطنية فى شعر محرم ، والخلق الفنى فى شعره والمقومات الفنية فى شعره للدكتور أحمد الحوفى وعبد الحى دياب والدكتور حامد حفنى داود .

وفى اليوم الثانى للمهرجان ألقيت قصائد الشعراء : محمود محمد حسن ، عبد الغنى سلامة محمد صابر عاشور ، عبد القادر العوا ، أحمد على السمرة ، موسى شاكر الطنطاوى ، محمد عثمان مصطفى ، وألقيت بحوث عدة ، منها بحث عن الثورة الاجتماعية فى شعر محرم للأستاذ محمد محمد الحوفى ، وبحث آخر عن الالتزام فى شعر محرم ، وقد ألقاه الأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى ، وبحث ثالث عن اللمحات الإنسانية فى شعر محرم وقد ألقاه الأستاذ فوزى عبد القادر الميلادى .

وفى اليوم الثالث للمهرجان ألقى محمد عبد المنعم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خ اجى الأستاذ بكلية الدراسات العربية بحثا عن الثورة الوطنية والفنية فى شعر محرم ، وألقى الأستاذ أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر الشريف بحثا عن شباب الإسلام فى شعر أحمد محرم ، وألقى الدكتور سعد الدين الجيزاوى بحثا عن القرآن الكريم فى شعر محرم ، وألقى حسنين محمود حسنين بحثا عن العامل والفلاح فى شعر محرم .. وألقى عدد من الشعراء قصائد بليغة ، وهم : عبد العليم القبانى ، السقا محمد الشناوى ، كال نشأت ، إدورد حنا سعد ، يس الفيل .

وألقى الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله كلمة فى تحية ذكرى الشاعر واختتم المهرجان الأستاذ أحمد الجبالى السكرتير العام المساعد للمحافظة بكلمة قيمة ، حيا فيها ذكرى الشاعر كما حيا فيها وفود أدباء الجمهورية العربية المتحدة .

وأقيمت حفلة شاى كبيرة . وزعت فيها المدالية التذكارية للمهرجان ، وقد نقش عليها المهرجان وتاريخه

وانتهت بذلك أكبر حفلة ذكرى أقيمت للشاعر أحمد محرم حتى الآن ، جزاه الله عن العروبة والإسلام خير الجزاء ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

التبشير ... ووسائل التبشير

ركيزة ذات أثر وخطر ... ووسيلة إقناع تؤثر فى النفس وتأسر القلب ، وسلاح يخطئ من يظن أنه من أسلحة الدنيا الحديثة تلك هى الدعاية . وهى علم يقوم على التخطيط ، وفن يرتكز على الذوق ويعتمد على دراسة نفسيات الأفراد والجماعات . والقرآن الخبير بالنفسيات الذى سبر الأغوار ووصل إلى الأعماق لم يكن بدعاً أن تكون الدعاية اتجاهاً من اتجاهاته النفسية ، ووسيلة يصل بها إلى جذب الأفئدة للدين وإلى تمكين الإيمان فى قلوب هشة الإيمان ضحلة اليقين . ولا خير ولا ضرر ؛ فالوسيلة إن كانت شريفة لغاية نبيلة فأنعم بها من وسيلة .

وقد يجفل البعض عندما يعلم أن الإسلام سلك سبيل الدعاية لدعوته ، وقد يستنكر ذلك أو يستبعده ؛ إذ أن كلمة « دعاية » اتخذت الآن مفهوماً شائماً شانها وشابها وأحاطها من ترهات وأكاذيب وبخاصة بعد أن اتخذتها بعض الأمم سياسة تتوصل بها إلى شراء ذمم الأفراد ونفوس الجماعات ووأد الحريات فى الأمم والدويلات . وفرق بين هذه الدعاية بمفهومها الدولى الحديث الشائع وبين الدعاية الإسلامية التى هدفها جمع القلوب على الحق والحب والخير ونشر دعوة الوئام والسلام لتنعم الإنسانية إلى ظلال الوحدة والتدين الحق والقرآن حينما قال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » . وجعل المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة كان يعلم أن نفوسهم كالأرض الموات تحييها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العطاء وينعشها السخاء فكان علاجها فى كثرة عطائها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ».

فلا عجب بعد نزول هذا التوجيه الإلهى أن أجزل الرسول عليه الصلاة والسلام المنح والأعطيات يستألف بها القلوب ويعالج بها النفسيات ؛ فأعطى لكل من الأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن مائة من الإبل يستميل بها قلوبهم الإسلام ؛ حتى قال صفوان : « لقد أعطانى محمد ما أعطانى وهو أبغض الناس إلىّ . فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس إلىّ » .

ثم فى زمن أبى بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضا فكتب لهما عهداً بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال : « إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ؛ فإن ثبتم عليه ... وإلا فبيننا وبينكم السيف » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه حينما يقرأ القرآن فى بيته بمكة كان يعتمد أن يجوّد قراءته ويتمهل فى تلاوته حتى تصل إلى الآذان المرهفة التى كانت محيطة به وإلى قلوب بعض المشركين الذين كان يعلم أن قراءته تصل إلى مسامعهم ، وما كان يرجو من وراء ذلك إلا أن يسحرهم بروعة التنزيل وحلاوة الترتيل فيأتوا مسلمين مستسلمين ، وقد كان له ما أراد ، حتى ضجت قريش ، وضاق رؤساؤها بصنيعه ، فبيتوا أمرهم بليل وتظاهروا على إخراجه من مكة لولا أن قطع عليهم « ابن الدغنة » ما حاكوه ؛ بإعلانه حمايته لأبى بكر .

وما زواج المسلم بالكتابية - فى رأى البعض - إلا لون من ألوان الدعوة إلى الإسلام ؛ لأنه إذا ما عاشرت الكتابية زوجها المسلم ورأت تعاليم دينه الحقة مجسمة فيه تنضح بها أعماله وينطق بها سلوكه ووجدت فى المنزل شخصية إسلامية متكاملة : من رجولة حقة وحسن عشرة ومحافظة على مفاهيم العقيدة دعاها ذلك إلى المقارنة بين عقيدتها وعقيدة قرينها . وسرعان ما تكون على شاكلة زوجها عقيدة وسلوكا .

من أجل هذا أباح الدين الزواج بالكتابيات للمسلم وبخاصة إذا كان الزوج مرآة صادقة تنعكس عليها تعاليم دينه ... أما إذا كان الزوج إمعة باهت الشخصية مهزوز الإيمان يلقى بمقاليد نفسه إلى زوجه الأجنبية ، فتتصرف فيه بمقتضى معتقداتها وعاداتها كان ذلك عكسا للقضية وقلبا للحكمة التى من أجلها أحل الله الزواج بالكتابيات .

والإسلام دعوة عالمية ، ورسالة إنسانية يجب أن تعم المحيط الدولى وأن تصل إلى الناس كافة فى مختلف البقاع والأصقاع ، وبخاصة فى هاتيك الأنحاء التى لا تعرف من الإسلام إلا الشهادتين ... ولا تعرف عن أصوله ورسوله إلا أثارة من علم أو بقية من اعتقاد قديم متوارث . ! !

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهل شحذنا سلاح الدعاية لدعوتنا العالمية العامة فى هذه البقاع لنكشف لها عن مساتير الروعة الكامنة فى شريعتنا ولنجلو لها أصول الدين ؟

إن الهيئات الدينية وأجهزة الوعظ عندنا ووزارة الأوقاف والأزهر كل أولئك مرجوون اليوم لأن يسهموا بإمكانياتهم وعلمائهم فى نشر الدين والدعوة له فى تلك الجهات النائية التى لم يبلغها صوت الإسلام ، ومطالبون بتجنيد دعاة يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومرشدين يحملون إلى دنيا هؤلاء دين الله وكتابه ، ويقدمون لهم زاداً إلهيا يخرجهم من الظلمات إلى النور ويدخلهم فى دين الله أفواجا .

وللمستشرقين المغرضين - وكثير ما هم - فى هذه الأراضى البكر صولات وجولات ، ولدعاة الأديان الأخرى مغانم ومكاسب ، فمتى نرى طيف الداعية الإسلامى المستنير فى هذه الأصقاع ؟

وهل أهلنا هؤلاء الدعاة وأعددناهم الإعداد العلمى الدينى فزودناهم بمعرفة لهجات تلك الأصقاع حتى نمكنهم من الوقوف على ما فى جعبة الآخرين من رآء وتيارات ومذاهب يريدون بها أن يطفئوا نور الله !

وليس نشر الدعوة الإسلامية والدعاية لها بمقصور على الأنحاء التى لم تنل حظها من العلم والمعرفة ، ولا على الجزر النائية المتفرقة ، بل هو واجب فى أشد البلاد تحضراً ورقياً وثقافة

وأصدق شاهد ما نراه من إسلام بعض الأوربيين والأمريكيين الذين تسوقهم المصادفة إلى الاطلاع على مؤلف إسلامى ، أو كتاب دينى مترجم بلغتهم فيذعنون ويؤمنون ويولون وجوههم شطر القبلة الإسلامية .

محمود الشريف

رئيس قسم بوزارة التعليم العالى

كتابة المصحف بالإملاء الحديث أيضا :

قرأت ما أثاره السيد عبدالعزيز البليدى فى بريد القراء من مجلة « العربى » العدد ٥٤ الصادر فى مايو ١٩٦٣ تحت عنوان « المصحف العثمانى وقواعد الإملاء » كما قرأت التعليقات المختلفة على كلامه .

واسمحوا لى أن أضع النقط فوق الحروف وأن أعود بذهن القارئ الكريم إلى بضع سنوات مضت ... ثارت فيها ثائرة الشعب الانجليزى ومثقفوه ورواد الأدب والفلسفة فى المجتمع حينما ظهرت دعوة تنادى بصدق وإخلاص — إلى إصلاح اللغة الإنجليزية وتشذيب كلماتها من الحروف الميتة . وما أكثرها — واستبدال الحروف التى لا تتفق أصواتها مع أصوات النطق بالكلمة كما فعلت اللغة الأندونيسية ، واليوغوسلافية حتى يسهل على الأجانب تعلمها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكانت حجة الذين غلبوا على أمرهم فى هذه المعركة من المحافظين هى المحافظة على أرومة كلمات اللغة ، واستيفاء دلالتها على إصالتها فى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة .

وفى مجتمعنا العربى يظهر بين الحين والحين صرخات نشاز ، تثير الغبار فى وجـــه مقدساتنا وتعبث بها كالثور الهائج فى متحف الخزف ، غير متعمقين ولا دارسين ، وليتهم فعلوا ، إذن لأراحوا واستراحوا .

ومشكلتنا اليوم هى كتابة المصحف بالإملاء الحديث ، ويتذرع السيد البنيدى إلى ذلك بأن فى المصحف كثيراً من الكلمات مكتوبة بصورة لا يمكن أن ينطقها القارئ منها نطقاً صحيحاً ويستمر فى دعواه فيقول : « فضلا عن أنه يسهل على القارئ العادى أن يقرأ الكتاب على حقيقته دون أن يخطىء فى النطق ، أو يلحن فى قراءته .

ومن هنا يبدو أن المشكلة فى نظره يمكن حلها بأن ينطق القارئ العادى نطقا صحيحا إذا سرنا فى كتابة المصحف على قواعد الإملاء الحديثة .

ولعل سيادته نسى أو تناسى أو لعله لم يرد بخاطره بعد ، أن يبين لنا كيف نحل المشكلة فى عدم اللحن ، وفى صحة القراءة بالإملاء الحديث إذا أغفلنا الموسيقى القرآنية من غن وإدغام ، ومد بأطوال محددة فى علوم القرآن ولم يجب عن تساؤلنا : هل إذا كان الإملاء الحديث ستسهل على القارئ العادى أن يقرأ القرآن ، بعد ذلك أم لا ؟ .

إن هذه وقفة تستحق من سيادته التأمل والتفكير ، وبخاصة وأن أهمية الموسيقى القرآنية عند كثير من المستشرقين والباحثين الأجانب لا تفوقها أهمية أخرى ، حيث يرجعون إليها ، السر فى ميل العـــرب إلى الإسلام ، وانجذابهم إلى سرعة الدخول فيه كما يصرح بذلك الأستاذ « جب » فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » .

وإذن فلن تكون النتيجة إلا أن كتابة المصحف على حسب قواعد الإملاء لا يحل المشكلة ، ولا يسهل على القارئ العادى ، ولا الشخص المثقف ثقافة غير أزهرية أن يقرأه أو يتلوه تلاوة صحيحة ، كما ذكر .

ولا يخفى على أى قارئ عادى أن المصاحف قد كتبت فى عهد « عثمان بن عفان » على يد كتاب الوحى وأجمع الصحابة على ما كتب فيها ، ووزعت نسخ منها على الأمصار ، لتكون وحدها المرجع الوحيد الذى يدندن حوله الجميع ، وأحرق ماعداها من المصاحف ولا ندرى كيف يمكن مخالفة الإجماع ؟!

ولم تكتب المصاحف فى عهد « عثمان » لتقرأ برواية واحدة ، وإنما كتبت لتقرأ بمختلف الروايات المشهورة ، والرسم الذى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يمكن أن يتحمل كل هذه الروايات إنما هو الرسم العثمانى أما الكتابة على حسب القواعد الإملائية فلا تكفى فى تحقيق الهدف الذى قصد إليه المسلمون فى الصدر الأول .

وليس هذا تعصبا أو انحيازا فى الرأى إلى ناحية ، فإن « عثمان بن عفان » لم يشتهر له قبل ذلك طريقة خاصة فى الكتابة ، ولست أشك فى أن الذى ابتكر طريقة الرسم العثمانى ليس إلا الحاجة ثم اجتماع المسلمين وتشاورهم وطول تفكيرهم فى ابتداع نوع من رسم الكتابة يؤدى أغراض المصحف ، ويمكن من قراءته على الروايات المشهورة .

وأظن أنه لا ينبغى أن يعتبر هذا نقصا فى المصحف يجب أن يكمل ، ولا مشكلة يحسن أن تحل ، فليس العيب فى المصحف إذن ، ولا فى رسمه العثمانى ، وإنما العيب فى طرق التربية المدرسية التى تأخذ بها بعض الحكومات الإسلامية تلك التى لا تريد بالتلميذ أن يرتفع إلى مستوى التمكن من قراءة القرآن وفهمه ، وإنما خلقت للمجتمعات الإسلامية من ينادى بالعبث بدستورها ، والنزول به ليصل إلى مستوى غير المثقفين ثقافة صحيحة .

وقبل أن أترك القلم يحسن بى أن أشير إلى حل لهذا الموقف ككل ، وليس الحل كما يرى السيد البليدى ، فى إعادة كتابة المصحف بالإملاء الحديث ، وإنما لابد عند الرغبة فى حفظ القرآن أو تعليم قراءته . . من المعلم أو المدرسة ، فهو الذى يأخذ بيد تلاميذه ، ويوقفهم على حدود الموسيقى القرآنية ، فى غنها وإدغاماتها ، وأطوال مدها ذات الحركات المحددة ، ثم هو الذى يفطنه إلى ما هنالك فى طيات الرسم العثمانى من روايات أخرى صحيحة ، يؤخذ باستعمالها ، وسيسار على تداولها ، فإن ذلك وحده هو علاج المشكلة ، ويوم أن يكون السيد « البليدى » وأمثاله تلاميذ لهذا المعلم . . يومذاك لا تكون هناك مشكلة .

ولا أنسى أن أهمس فى أذن السيد البليدى بأن مصحفه لم يخل من الخطأ فى الإملاء فكلمة « رئيا » من قوله تعالى : « أثاثا ورئيا » كتبها هكذا « رأيا » - على الألف - .

كما أن رداءة الخط الذى كتب به المصحف كان من بين الملاحظات التى دفعت اللجنة إلى أن تعتبر أن نشره غير مشرف ، فضلا عن التكاليف التى ستبذل فى طبعه .

وقد عرض مصحف السيد البليدى على لجنتين كبيرتين تابعتين لمجمع البحوث الإسلامية : أحداهما « لجنة فحص المصاحف » التى طالبت بمصادرته ، والثانية : « لجنة الفتوى التى أيدت وجهة نظرى » .

محمد أحمد السنباطى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فتاوى مختارة ..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

[الاجابة عن السؤال الأول لفضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وباقي الأسئلة إجابتها لجنة الفتوى بالأزهر]

الرؤى والأحلام :

السؤال :

ما هي الرؤى والأحلام التي ترى في النوم وهل هي صادقة أم كاذبة ، وهل هي من الله أم من الشيطان ؟ .

الجواب :

ليس من شك في أن الإنسان قد يرى في نومه أشياء : أقوالا يسمعها أو أحداثا وصورا يراها ، وليس من شك في أن ما يراه من ذلك قد يكون واضحاً متميزاً بعضه عن بعض ، وقد يكون غامضاً يختلط بعضه ببعض ، وتتغير صوره ولا يثبت على حال . وليس من شك في أن بعض ما يرى من النوع المتميز قد يقع في اليقظة ، تارة بنفس الصورة التي رؤى عليها ، وأخرى تكون الصورة المرئية رمزاً لما يقع ، وفي الحالتين تسمى بالرؤيا الصادقة .

أما ما لا يتميز ولا يقع فإنه يعرف باسم أضغاث الأحلام .

والقسم الأول ، وهو الرؤيا الصادقة أكثر ما يقع لأرباب النفوس الصافية كالأنبياء والصالحين . ومنه رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة ، أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام ، وقد ذكرها القرآن في سورة الفتح بقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » .

ومن الصادق الرمزي ما رآه يوسف عليه السلام رمزاً لإخوته وأبويه وهو ما حكاه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

القرآن بقوله : « يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » وجاء فى آخر القصة حينما دخلوا عليه « يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

ومن الرمز أيضا ما حكاه الله عن صاحبى يوسف فى السجن : « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » . وقد عبرهما يوسف عليه السلام بقوله : « أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » : ومنه ما حكاه الله فى السورة نفسها عن رؤيا الملك التى استدعى لتعبيرها وتفسيرها يوسف من السجن : « إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » وقد عبرها يوسف بسبع سنين مخصبة بعدها سبع سنين مجدبة : وقد جاء فى الصادقة فيما يختص برسول الله صلى الله عليه وسلم قول عائشة : « أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح » . وصح فى الرؤيا عامة قوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وفى بعض الروايات وصفها بالمبشرات .

والرؤيا الصادقة من غير الأنبياء ثابتة ولا شك فى حصولها وهى لا تختص بأهل الصلاح والتقوى ، وفى صدق رؤيا صاحبى يوسف ما يرشد إلى أنها قد تقع لغير المؤمنين والصالحين ، وهذا مما يشهد به الواقع الذى نعلمه من رؤى بعض الناس حتى المعروفين بالفسق والفجور ، وهى فى هذه الحالة تكون كما قال العلماء الشرعيون : إما بشرى بالهداية إلى الإيمان والتوبة ، أو إنذار من الاستمرار على الكفر أو الفسق أو استدراج .

والرؤيا من شئون الروح التى لا وثوق بشىء مما يقرره البشر فيه ، ولا شك فى أن منها ما يكون أثرا لاشتغال النفس بأشياء خاصة فى اليقظة ومنها ما يكون أثراً لفساد الأمزجة واضطراب الأجهزة . أما الصادق منها عينا أو رمزاً فهى من فضل الله على الناس .

حكم نقل المسجد إلى مكان يتسع لعدد أكبر

السؤال :

بنى جدى زاوية تقام فيها الجمعة وذلك منذ سبعين سنة ولقد ساءت جدا وأصبحت غير صالحة بل لا تليق لإقامة الشعائر الدينية ، ومساحتها لا تسمح بإعادة بنائها لصغرها ولوقوعها بين مساكن القرية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهل يجوز شرعا نقلها من مكانها الحالى إلى مكان آخر يمكن معه بناؤها على مساحة أوسع وليتيسر كذلك تزويدها بدورة مياه وبخاصة أن قريتنا تتمتع بالمياه الصالحة الشرب — هذا وفى نيتى أن أترك مكان الزاوية القديمة فضاء يتسع به طريق القرية ؟

عبد الله مفتاح
كاتب أول بالنيابة العامة

الجواب :

يجوز بناء المسجد الجديد بدلا من الزاوية التى أصبحت غير صالحة لإقامة الشعائر ، كما يجوز الانتفاع بمكان الزاوية الأولى بوجوه الانتفاع الجائزة شرعا .

هل تأخير الثمن فى البيع يحل الزيادة عليه :

السؤال :

بعت لأحد الناس أربعة أفدنة منذ ست سنوات وسدد المشترى ثمن ثلاثة أفدنة فقط ولكنه تسلم الأفدنة الأربعة منذ وقت البيع . فهل لى الحق شرعا أن أطالبه بقيمة إيجار الفدان الذى لم يدفع ثمنه بعد ؛ فأضيف قيمة الإيجار عدة ست سنوات على الثمن الأصلى للفدان ؟

ع . م — المنصورة

الجواب :

إذا كان قد تم البيع منذ ست سنوات كما قال البائع فإنه لا يجوز له شرعا أن يأخذ من المشترى إيجار الفدان الذى لم يدفع ثمنه — لأن الفدادين الأربعة صارت ملكا للمشترى منذ تمام البيع فصارت منفعة الأرض جميعها له ، فلا حق للبائع فى أخذ شىء من المشترى فى مقابل المنفعة وليس له إلا باقى الثمن ، ولا يحل للمشترى أن يماطله فى ذلك ، ولا أن يدفع شيئا زائدا عن الثمن عوضا عن تأخير باقى الثمن .

تعليق على فتوى سابقة بتحريم لحم الخنزير :

نشر فى العدد الأخير من مجلة الأزهر [1] فى باب فتاوى مختارة سؤال طالب يدرس بانجلترا عن الحكمة فى تحريم لحم الخنزير على المسلم ، وقد علم من أساتذته أثناء دراسته لعلم الحيوان ، أن نوعا من الدود يسمى الدودة الوحيدة تعيش فى عضلات الخنزير ، وهى من الجراثيم الفتاكة التى تهلك الإنسان على مر الزمن ، وإذا كان الإنسان توصل إلى تطهير لحم الخنزير من هذه الدودة ، فلماذا يظل الدين يحرم أكله ؟

---

(١) مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٣٨٣ أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد جاء فى الرد على سؤال الطالب الشاب أن الحكمة فى التحريم امتثال أوامر الله ونواهيه وإن لم تظهر حكمة هذه الأوامر والنواحى فى بعض الحالات .

والحكمة فى تحريم أكل الخنزير على المسلم ليست بخافية ، وخاصة فى هذا الوقت الذى تقدمت فيه العلوم والبحوث المتعلقة بالأغذية العامة .

لقد حرم الدين الإسلامى لحم الخنزير لأسباب كثيرة ، وإن لم يذكرها الدين ولم يعرفها القدماء ، إلا أن العلم الحديث أثبت بعضها ، وأثبتت التجربة والمشاهدة بعضها الآخر ، وأهمها :

أولا : الدودة الوحيدة أو حويصلات الديدان الشريطية . وقد ثبت علمياً أن هذه الحويصلات لا يمكن معرفتها فى الحيوان الحى ، فإذا أصابت أجسام الحيوان إصابة شاملة كان من العسير معالجتها وإبادتها بطريقة فعالة ، وإن قال الأمريكان أخيراً بغير ذلك : وحتى إذا أمكن إبادتها فهناك عوامل أخرى تثير الشك فى اللحوم المصابة أصلا بهذه الديدان .

وهذه الديدان تصيب الأبقار فى بلاد كثيرة من بلاد الشرق ، كالحبشة وكينيا وغيرهما . وبعضها تكون إصابته بالغة ، ومع ذلك فالدين الإسلامى لم يحرم أكل البقر ، بل حرم لحم الخنزير لهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، منها :

١ — الخنزير فى الأصل من الحيوانات المفترسة ، ومن المعروف أن نابى الخنزير يقطعان وهو صغير ، وإلا كان خطراً على كل من يقترب منه بعد نموه واكتمال قوته ، كما أنه من الشائع جداً أن أنثى الخنزير كثيراً ما تصاب بجنون النفاس بعد الولادة فتأكل مواليدها إن لم يبعدوها عنها ، وكثيراً ما تهاجم من يتعرض لها فى فترات النفاس بشراسة واستماتة ، وقد حرم الدين أكل لحم كل حيوان مفترس ، بل حرم تناول لحوم الحيوانات آكلة اللحوم عامة وإن لم تكن مفترسة ، كالقطط والكلاب ، لأسباب صحية لا تخفى على أحد .

٢ — الخنزير بطبعه من الحيوانات الوالغة ، كالضباع ، فهو يلغ فى الأرض وقد يأكل الميتة والقذارة ويستطعمها .

٣ — لحم الخنزير يعطى سعراً حرارياً مرتفعاً جداً ، فإذا أكله المسلم فى البلاد الحارة ، كان تناوله خطراً عليه ، ومن المعروف عندنا أن تناول الأطعمة التى تعطى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

سعراً حراريا مرتفعاً ، والأطعمة الحريفة والمملحة كالفسيخ والسردين ، وهى لاتعطى نفس السعر ، تضر كثيراً بمن يتناولها وبخاصة فى الأجواء الحارة .

٤ ـ لاحظت كثيرا ـ فى مصر والخارج ـ أن من يتناولون لحم الخنزير بكثرة يكون عندهم نوع من التبلد، وينعدم لديهم قدر كبير من النخوة ولا أقول أكثر من ذلك ! وإنى أعرف الكثيرين من إخواننا المسيحيين يرفضون لحم الخنزير .

وهنالك أمراض كثيرة كشف عنها العلم الحديث تصيب الخنازير ، منها كوليرا الخنازير ، وحمرة الخنازير ، ومن أخطرها مرض السل الذى يصعب تشخيصه فى الحيوان الحى كذلك :

من أجل هـذا كله ، ومن أجل ما خفى علينا حتى الآن ، جاءت الحكمة فى تحريم لحم الخنزير ، فهذه كلها تفسيرات بعضها أثبته العلم الحديث وبعضها اجتهادى من ملاحظاتنا ومشاهداتنا ، ولعـــل عند علماء التغذية تفسيرات أضخم من تلك التفسيرات ولكن العوامل الاقتصاديه تحول بينهم وبين إذاعتها شأنهم فى ذلك شأن التدخين ، الذى يضر بصحة الإنسان ضررا بالغا ، وينقسم العلماء والأطباء فى العلم حياله قسمين تبعا لأهواء المصانع والشركات التى تتاجر فيها، ولاستعباد الإنسان لعادة التدخين ، وإن أصابه بالضرر البالغ ، فالإنسان عبد العادة .

عبد الغنام

* * *

المجلة :

مازال هنالك بعد ماساقه الأخ الأستاذ حسين الغنام من مضار لحم الخنزير الداعية لتحريمه ـ مجال لبحوث تتجدد بتجدد أدوات البحث وإمكانياته قد يصل بها العلم غداً لمضار أخرى مما يجعل ارتباط الحكمة بضرر معين أمراً تعوزه الدقة ، ولذا يتبين سداد المسلك الذى اتخذته لجنة الفتوى بالأزهر إزاء الإجابة على الحكمة فى تحـــريم الخنزير بالتفصيل الذى نشرناه فى العدد السابق ، وللأستاذ بعد هذا تقـــديرنا على ما بذله فى بحثه من جهد .

مقدم الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق الدكتور عبد الرحيم فودة

فهم القرآن

أما علماء الشرع فيقولون : إن اللغة لا تحمل غير مدلولاتها ، وإن الألفاظ وضعت لها حدود وقيود ، وإن القرآن - هو دستور المسلمين - قد وصفه الله بأنه نزل بلسان عربي مبين ليبين للناس ما نزل إليهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإننا إذا تركنا لكل واحد أن يخلق من المعاني ما يشاء ، ويتلاعب بالألفاظ حسب الأهواء من غير أن نشده إلى ما تواضعت عليه اللغة وجرى عليه الناس أجمعون لانقلبت اللغة إلى رطانات ، وتحولت معانيها إلى غموض وإشارات ، ووضعت الألفاظ في غير موضعها ، وقد يكون للجهل معنى العلم ، وللرذيلة معنى الفضيلة ، وللضعف معنى القوة وهكذا دواليك سم الأشياء بغير مسمياتها ، وضع الألفاظ في قالب معمياتها ، واكذب ماشئت فقد يؤول بالصدق ، وأصدق ماشئت فقد يؤول بالكذب ، ولا يبعد أن يكون الإسلام بمعنى المسيحية ، والحضارة بمعنى الهمجية ، ويفهم معنى البيان الذي علمه الله للانسان ، وتضيع الحكمة من قول الله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ومعاذ الصحابة والتابعين أن يكونوا سلكوا هذا المسلك ، أو ولجوا هذا المهلك ، الذي يبلبل الأفكار ، ويجعل الناس في ليل من الشك مظلم ، ويترك لأعداء الدين فرصة الصيد في الماء العكر على أن هؤلاء « الشاطحين - يعني بعض رجال التصوف - تعدت ألغازهم إلى كتاب الله ، ففسروا بعض آياته بما لا تطاوعه لغة ، ولا يسعفه رأي صحيح ، هؤلاء « الشاطحون » الذين انتحلوا وظيفة التربيـــة الروحية والتقريب من الله أبعدوا الناس عن القرآن العربي الواضح المبين . الذي أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير . أو هموهم أنه عال على الأفهام ، وما دروا أن لازم هذا كفر ، وهو أنه إذا كان لا يفهم ، فإنزاله عبث ، وأنى يكون هذا ومنزله تعالت أسماؤه يصفه بأنه عربي مبين ، وأنه غير ذي عوج . وأنه ميسر للذكر ، وينعته بأنه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يهدى للتى هى أقوم ، وكيف يهدى إذا كان لا يفهم .

هؤلاء يصدرون فى شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة ، يسدون على الناس باب الاهتداء به فى الأخلاق التى تزكى النفس والعقائد التى تقوى الإرادة ، والعبادات التى تغذى الإيمان ، والأحكام التى تحفظ الحقوق ، ثم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه وهى التى استأثر الله بعلمها . فيخوضون فى الروح والملائكة والجن وما بعد الموت .

الأستاذ محمد أمين هلال

من مجلة : الإسلام

التصوف

التعليق .

هذا كله صدق وحق ، ولكن هذا لاينفى أن القرآن كما قال علماء الشرع أنفسهم : حمال ذو وجوه ، وأن ألفاظه تتعلق بمعان جميلة كلها صحيح أو محتمل الصحة ، بل إن اللفظ منه كما قال المرحوم فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز : « كأنه فص من الماس يريك كل ضلع منه شعاعا ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع » .

نعم إنه قريب من الإفهام . ولكن استيعاب معانيه فوق طاقة الأفهام ، وقد نقل عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : جميع العلم فى القرآن ولكن أفهام الناس تتقاصر عنه ، ونظم هذا المعنى فى قول الشاعر :

جميع العلم فى القرآن لكن
تقاصر عنه أفهام الرجال

وقد وصفه الله بقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » وقوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

ع . ف .

وقديما حار الناس فى تعريف التصوف . وتشعبوا فيه الى مائة رأى ، بل زادت أقوالهم فى ماهيته على ألف قول ، وفى ذلك مخلص لمن يريد أن يقف به عند معنى خاص ، كأن يقول : « التصوف هو كل عاطفة صادقة متينة الأواصر . قوية الأصول ، لايساورها ضعف ، ولا يطمع فيها ارتياب » .

وهذا التعريف قريب من قول أبى على الروزبارى : « التصوف الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه » وقول الجنيد - وقد سئل عن التصوف : هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال . وهو من رسوم القلوب والأرواح ؟ إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية ، والأساس أن يكمل الصدق ، ويسود الإخلاص . بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به واطمأنت اليه فى عالم المعانى ، وكذلك يتمثل التصوف فى صور كثيرة . فيكون فى الحب ، ويكون فى الولاء ، ويكون فى السياسة حين تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان .

ومن شواهد التصوف فى الحب قول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا . وبأن لا أستطيع . وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة الصجلى . وبالحول ينقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

فهذا « الزهد » فى الوصل تصوف ، وإن لم يذكر اسم صاحبه بين أسماء الصوفية ، وإنما كان الزهد تصوفا . لأنه من دلائل الصدق وقوة العلاقة الروحية ؟

الدكتور زكى مبارك
من كتاب التصوف الإسلامى

خير الأمور الوسط :

سأل أعرابى ابن عباس فقال : إن العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط ، هل هذا موجود فى القرآن قال قال ابن عباس : نعم فى أربعة مواضع : فى قوله تعالى فى وصف بقرة قوم موسى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » أى وسط بين الكبر والصغر ، وفى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » أى فتوسط بين الأمرين ، وفى قوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » هذا السبيل هو الوسط ، وفى قوله تعالى فى مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . أى وسطا .

عبد الرحمن الضبع
من كتابه الأنابيش

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فهرس

صفحة

٣٨٥ أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش !
للأستاذ أحمد حسن الزيات

٣٨٩ تفسير الأستاذ الإمام : الشيخ محمد عبده .
للأستاذ عباس محمود العقاد

٣٩٣ الإسلام محرر العبيد
للأستاذ محمد محمد المدنى

٣٩٧ من ملاح الإيمان
للأستاذ عبد اللطيف السبكى

٤٠١ الإسلام وثقافة المرأة
للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٤٠٦ من صفحات الأندلس: ملك يكفر عن خطيئته
للأستاذ محمد رجب البيومى

٤١٣ المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام - ٥ -
للأستاذ عبد الرحيم فودة

٤١٧ الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد وعالمها
للأستاذ محمود الشرقاوى

٤٢٣ مع البلاغيين : اللفظ والمعنى - ٤ -
للأستاذ على الجارى

٤٢٩ حرية العقيدة فى الإسلام
للأستاذ حسن فتح الباب

٤٣٤ من معانى القرآن للأستاذ عبد الرحيم فودة

٤٣٥ بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية - ٨ .
للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

٤٣٩ الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين
للأستاذ أحمد العرباصى

٤٤٤ واللاحم والمطولات الإسلامية والشعر القصصى
للدكتور سعد الدين الجيزاوى

٤٥١ الصوفية وعلاقتها بالزهد
للأستاذ محمد إبراهيم الجيوشى

صفحة

٤٦٢ شخصية المسلم
للأستاذ الحسينى أبو فرحة

٤٦٢ رأى جديد فى أشعار المديح
للأستاذ محمد صلاح الدين فضل

٤٦٨ عدالة التوزيع للأستاذ فتحى عثمان

٤٧٥ التكاليف والشراب والعقاب
للأستاذ محمد يوسف الهيبح

٤٨٢ الأدب العربى واتجاهات القومية العربية
للدكتور جمال الدين الرمادى

٤٨٤ نحو أدب إسلامى
للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

٤٧٦ من أخلاق الشريعة وآدابها
للأستاذ عباس طه

٤٨٩ ما يقال عن الإسلام : فهم الإسلام
للأستاذ عباس محمود العقاد

٤٩٤ الكتب : للأستاذ محمد عبد الله السمان
الإسلام والمذاهب الأدبية - كما تحدث الرسول - المرأة فى الإسلام - الحسبة فى الإسلام .

٤٩٩ أنباء وآراء : شاعر المروءة والإسلام : أحمد محرم - الإسلام ووسائل الإعلام - كتابة المصحف بالإملاء الحديث أيضا .

٥٠٥ الفتاوى : للأستاذ إبراهيم محمد الأصيل
الرؤى والأحلام - حكم قلل المسجد لى مكان يتسع لعدد أكبر - هل تأخير الثمن فى البيع يحل الزيادة عليه ؟ - تعليق على فتوى حكمة تحريم لحم الخنزير

٥١٠ بين الصحف والكتب : فهم القرآن - للتصوف - خير الأمور الوسط .

مطبعة الأزهر

الثمن أربعون مليما